المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بدمياط الجديدة

مَلْحَمَة (ٱلسَّمَٰوَٰت السَّبْع) لكامل أمين

"دراسة في المحتوى والفن"

الدكتور

إبراهيم عبد المحسن إبراهيم أبو شعيشع

مدرس بقسم الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة

جامعة الأزهر

العدد السادس عشر (ديسمبر ٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي/ **ISSN** (2356- 6353)

الترقيم الدولي الإلكتروني/ (2636- 2716)

رقم الإيداع بدار الكتب / (2013/ 18766)

(ملحمة ٱلسَّمَٰوَٰت السَّبْع لكامل أمين "دراسة في المحتوى والفن")

ملخص البحث:

تناول الباحث في هذا البحث، الحديث عن عمل ملحمي شعري، لشاعر من كبار شعراء العصر الحديث، وهو الشاعر/ كامل أمين، وجاء البحث مُعَنْوَناً بـــــ: «ملحمة (السموات السبع) لكامل أمين "دراسة في المحتوى والفن"»، وقد اتبع الباحث في هذه الدراسة منهجًا تكامليًا، يعتمد على عدة مناهج، مثل: المنهج التحليلي، والتاريخي، والنفسي، وقد تم تقسيم البحث إلى فصلين، تسبقهما المقدمة، والتي تحدث فيها الباحث عن أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وعن المنهج المتبع في الدراسة، وعن الخطوات المتبعة في تطبيق هذا المنهج، وعن الشكل العام للبحث، ثم التمهيد، وقد تحدث فيه الباحث عن التطور التاريخي لمفهوم الملحمة، كما أشار فيه إلى حياة الشاعر، وملامح شخصيته الأدبية، والعلمية، والثقافية، والاجتماعية، ثم وفاته. وجاء الحديث في الفصل الأول: عن الدراسة الموضوعية لشعر (كامل أمين) في ملحمة (السموات السبع)، وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث، وهي: (النور القديم، ومعبر الأجيال من اللاوجود البشري إلى الوجود، وموقف صلاح الدين الأيوبي من الحروب الصليبية، وشجاعة الظاهر بيبرس في محاربة التتار).

وفي الفصل الثاني: جاء الحديث عن الدراسة الفنية، والتي اشتملت على بعض محاور الإبداع الفني، ومنها: (المعاني والأفكار المستوحاة من مضامين ملحمة (السموات السبع)، والمعجم الشعري وأثره في النتاج الملحمي لـــ (كامل أمين)، والصورة الفنية ودورها في رسم المشاهد المعبرة عن محتويات الملحمة، والموسيقى الشعرية بشقيها –الداخلية، والخارجية–، وعلاقتها بالصورة العامة لمضامين الملحمة).

ثم جاءت الخاتمة: والتي تناول فيها الباحث أهم النتائج التي أسفر عنها هذا البحث، ثم الفهارس الفنية، التي اشتملت على ثبت للمصادر، والمراجع، وفهرس لمحتويات البحث.

وأخيرًا يستطيع الباحث القول: بأن هذه الدراسة، كشفت لنا عن شاعر مطبوع متميز، يقرض الشعر من وازع نفسي، وديني، تحمله عاطفة صادقة، مع قوة في الأسلوب، ووضوح في النسج، مستعينًا في ذلك بالصورة الفنية الملائمة، والمتوائمة، مع الغرض، والموسيقى الشعرية الرنانة.

الكلمات المفتاحية: (ملحمة السموات السبع، كامل أمين، دراسة في المحتوى والفن).

Research summary

The research was entitled: "Literary and Critical Visions in the Epic of the Seven Heavens by the Poet/ Kamel Amin." In this study، the researcher followed an integrative approach، relying on several approaches such as the analytical، descriptive، historical، psychological and investigative approaches. The research was divided into two chapters preceded by the introduction، in which the researcher spoke about the reasons for choosing the topic and its importance، about the approach followed in the study، and about The steps followed in applying this approach are: And about the structure and general form of the research، then the introduction، in which the researcher talked about the historical development of the concept of the epic، and also referred to the life of the poet، and the features of his literary، scientific، cultural، political and social personality and then his death.

The discussion in the first chapter was about the objective study of Kamel Amin's poetry in the epic (The Seven Heavens). This chapter included several topics، namely: (the ancient light، the crossing of generations from human non-existence to existence، Saladin's position on the Crusades، and the courage of the apparent. Baybars in fighting the Tatars).

In the second chapter، there was talk about the artistic study، which included some aspects of literary creativity، including: (the meanings and ideas inspired by the contents of the epic of the Seven Heavens، the poetic dictionary and its impact on the epic production of Kamel Amin، the artistic image and its role in drawing scenes expressing the contents of the epic، and music. Poetics in its two parts - internal and external - and its relationship to the general picture of the contents of the epic.

Then came the conclusion، in which the researcher discussed the most important results that resulted from this research، then the technical indexes، which included a list of sources and references، and an index of the contents of the research.

Finally، the researcher can say: This study revealed to us a distinguished published poet who lends poetry a psychological and religious motive، carried by sincere emotion، with strength in style، and clarity in weaving، using the appropriate artistic image that is compatible with the purpose، and resonant poetic music.

Keywords: (A study in Content and Art، The Epic of the Seven Heavens، Kamel Amin).

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبي الهدى، الذي بعثه الله في الأميين رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وبعد...

فمما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية، عاشت عصوراً من القوة والازدهار؛ نتيجة لتمسكها بعدة أمور، منها: شرع ربها، وسنة رسولها، ثم بعد ذلك توالي فتوحاتها، وإعلاء قيم العدل والتسامح فيها، إلا أنها قد عانت—في بعض الأحيان- بشيءٍ من الضعف؛ نتيجة لعدة عوامل، من أهمها: حالات التفرق، والتشرذم، فضلاً عن الهجمات الشرسة المتعاقبة عليها، وفي هذه الأثناء ظهرت بعض الشخصيات المحفورة في ذاكرة التاريخ، التي سطَّرت الأمجاد، وجاء تصوير الشعر العربي مبرزاً لملاحمها البطولية، فبعث فينا شعوراً بالمعايشة معها، وقد تناول بعضها الشاعر/ كامل أمين في ملحمته (السموات السبع)، وأشار إليها الباحث في بحثه المعنون بـ (ملحمة "السموات السبع" لكامل أمين "دراسة في المحتوى والفن").

ومن خلال القراءة العامة للشعر الملحمي، تبين أنه من الفنون الأدبية العريقة، ذات الجذور التاريخية الطويلة، والتي تداولته أمم مختلفة من أمثال: اليونانيين، والرومان، والهنود، وكذلك الكوميديا الإلهية لـ (دانتي) الإيطالي، وما شهده الشعر العربي عبر عصوره المختلفة، ومن ثم استمرت محاولات الشعراء في طَرْقِ باب الشعر الملحمي حتي مستهل القرن العشرين؛ حيث ظهرت الملحمة ظهوراً لافتاً للنظر بثوبٍ جديد، وبمواضيع قومية، وتاريخية، تطرَّق إليها الشعراء بعد ذلك، من أمثال: (أحمد محرم) وغيره، إلا أن ملحمة (السموات السبع)، جاءت مُتَفَرِّدةً في حديثها عن معالجة بعض القضايا الدينية، ثم تاريخ بعض القادة الإسلاميين، ودلالة تراثهم؛ حيث قام الشاعر باستلهام الحدث التاريخي بشخصياته؛ بغية توظيف ذلك في ملحمته التي نظمها على وزن (بحر الكامل التام)، مما أتاح له الوقوف علي ما فجرته تلك الشخصيات من تنمية القدرة الإيحائية لملحمته.

وقد كان الباعث لاختيار هذا الموضوع عدة عوامل، من أهمها:

- الإيمان العميق بضرورة إبراز هذا الفن الشعري، ودراسته دراسة علمية جادة، ثم تقديمه لجمهور الدارسين.
- أن الشعر الملحمي عند (كامل أمين) في ملحمته (السموات السبع)، يمتاز باحتوائه علي مجموعة من المضامين الفكرية التي تمتاز بجودة بنائها الفني.
- أن (كامل أمين) لم يأخذ حقه من الدراسة في جانب الشعر الملحمي، فوجد الباحث في تناوله لملحمة (السموات السبع) من الإفادة، ما يكشف عن بعض الرؤى الفنية لقيمته الفنية عند القراء، والمتلقين.
- الرغبة في أن تضيف هذه الدراسة جديداً؛ لعل الباحث أن يستفيد منها، ويُفِيد بها غيره من الباحثين، إلا أن هذه الدراسة قد اكتنفتها بعض الصعوبات التي واجهت الباحث، ومنها: أن هذا الموضوع له جلاله وخطره؛ لأنه يتصل بالملحمة الشعرية، هذا بالإضافة إلي أن الموضوع نفسه، يفرض علي الباحث نوعاً من الحيطة والحذر في تدوين النصوص، والتثبت من الآراء؛ لأنه يتناول بعض الأسس العقائدية للدين الإسلامي، وكذلك شخصيات القادة الإسلامين، الذين سطَّر التاريخ أمجادهم.

منهج البحث، وخطته:

أما عن المنهج: فقد ترَسَّم الباحث فيه خطوات (المنهج التكاملي)، الذي يأخذ من كل منهج أدبي بطرف، فتمثل فيه (المنهج التاريخي)، الذي استند فيه إلي التاريخ الإسلامي؛ للاستعانة به، والاسترشاد بصورة هؤلاء القادة، الذين كانوا علامة بارزة في جبين الدهر، و (المنهج الفني) في بيان، ونقد شعر الشاعر، وما أصاب فيه، وما أخطأ، و (المنهج النفسي) في استبطان نفسية (كامل أمين)، و (المنهج الاستقرائي) في إحصاء البحر الذي قامت عليه الملحمة، وهو (بحر الكامل التام)، وغير تلك المناهج التي عرفت في حقل الدراسات الأدبية.

وأما عن الخطة: فقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي وفق خطةٍ، جاءت في فصلين، تسبقهما مقدمة، وتمهيد، وتلحق بهما الخاتمة، والمصادر، والمراجع، والفهرس.

أولاً: المقدمة: وفيها أظهر الباحث أهمية الموضوع، ومنهج البحث فيه، وخطته، وبعض الصعوبات التي واجهته في هذا السبيل.

ثانياً: التمهيد: وجاء بعنوان (الملحمة الشعرية: مفهومها- تطورها)، وتمت الإشارة فيه إلى التعريف بالشاعر/كامل أمين في نبذة مختصرة، ثم تقسيمه إلى عدة عناصر:

- المفهوم اللغوي للملحمة. - المفهوم الأدبي للملحمة.
- تاريخ الملحمة الشعرية، وتطورها. - الملاحم العربية في العصر الأدبي الحديث.

ثالثاً: الفصل الأول: وجاء بعنوان: (الدراسة الموضوعية لملحمة "السموات السبع")، ويشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: النور القديم.

المبحث الثاني: معبر الأجيال من اللاوجود البشري إلى الوجود.

المبحث الثالث: موقف صلاح الدين الأيوبي من الحروب الصليبية.

المبحث الرابع: شجاعة الظاهر بيبرس في محاربة التتار.

رابعاً: الفصل الثاني: وجاء بعنوان: (من محاور الإبداع الأدبي)، وهو خاص بمباحث الدراسة الفنية:

المبحث الأول: المعاني والأفكار.

المبحث الثاني: المعجم الشعري (اللغة، وبناء الأسلوب).

المبحث الثالث: الصورة الفنية، ويشتمل على: (مصادرها، ووظائفها، وأنواعها).

المبحث الرابع: الموسيقى الشعرية.

خامساً: الخاتمة: وهي للحديث عن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

وأخيراً: ثبت بالمصـــادر، والمراجع؛ حيث قام الباحث بترتيبها وفق الترتيب الهجائي، ثم فهرس محتويات.

والله من وراء القصد، وهو نعم الهادي إلى سواء السبيل.

الباحث

التمهيد

(الملحمة الشعرية: مفهومها– تطورها)

الأدب، ومنه الشعر معين لا ينضب، تنوعت مصادره، وبناء على ذلك تعددت موارده، وبقدر ما اتسع مفهوم الشعر الملحمي، اتسعت كذلك موضوعاته، فجاءت معبرة عن مختلف جوانب الحياة الإنسانية، وقد حاز شعر الملاحم على مساحة واسعة من رقعة الإبداع الشعري؛ حيث ضرب فيه بعض الشعراء بسهم وافر في إبداعهم لقصائدهم الشعرية؛ لاشتماله على فكرة جادة مؤثرة، تحمل للقارئ الخطرات الوجدانية للنفس البشرية، وقد بدا ذلك واضحاً للفاحص للدواوين الملحمية في العصور الأدبية المتعاقبة، بيد أن العصر الحديث، قد اتسم في كثير من إبداعاته الشعرية بهذه الملاحم، ومنها: هذه الملحمة التي نحن بصدد دراستها (السموات السبع) للشاعر/ كامل أمين)(١)، ولذا كان لزاماً على الباحث قبل أن يخوض غمار هذا الموضوع، أن يعرج على بعض العناصر:

---

(١) (**كامل أمين١٣٣٣–١٤٢٤هـ =١٩١٥–٢٠٠٣م**): هو كامل بن أمين بن محمد: شاعر مصري مُجِيد مغمور، يلقب بشاعر الملاحم الإسلامية، ولد في طنطا، وتعلم في المدارس الفرنسية والمصرية، وعمل في وزارة الأشغال، وخاض الحروب ثلاث مرات: مرة في الحرب العالمية الثانية، ومرة أخرى متطوعاً في حرب فلسطين١٩٤٨م وأصيب فيها، ومرة ثالثة متطوعاً في أثناء العدوان الثلاثي على مصر١٩٥٦م، ودخل السجون مرتين، حيث ألقي القبض عليه في محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا، وتكرر اعتقاله سنة ١٩٦٧م، فلبث في السجن ثلاث سنوات، واضطر بعد خروجه من السجن إلى العمل في إحدى الشركات، ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة عين شمس وعمل بالمحاماة، ولكن لم تتوفر له أسباب العيش المستقر مع أسرة قوامها زوجه (وهي ابنة رائد أدب الأطفال كامل الكيلاني)، وولدان توفي أحدهما صغيراً، وخمس بنات، فالتمس العمل في إحدى الشركات، وبرغم الظروف القاسية التي عاشها، كان شديد الاعتداد بنفسه، فنظم أبياتاً على وزن (بحر البسيط التام) هي من مشهور شعره، قال فيها:

إلَى الذين سمائي فوق عالَمِهم	**وفـوق كـلِّ عظيـمٍ فوقهـم قدمـي**
العائشـين مع الموتى مناصفة	**كالحلم في العين أو كالدود في الرمِ**
لئـن حَيِيتُ ومَدَّ الله في أجلـي	**لأسفكنَّ دَمَ الكُتَّـاب فـي قلمـي**
وأجْـدَعَنَّ أنُوفاً لوْ صَنَعْت لهـا	**أنْفـاً مِـنَ العَاجِ بَعْد اليَوْمِ لَـمْ تَقُمِ**
مِمَّنْ أخافُ وسيف الله في قلمي	**ومَنْ أهاب وصوتُ الحقِّ مِلْءَ فَمِـي؟**

=

أولاً: المفهوم اللغوي للملحمة:

تعددت المفاهيم اللغوية لكلمة (الملحمة)، فجاءت بمعنى: القتال في الحرب، والتحام المتقاتلين عند شعراء العصرين (الجاهلي، والأموي) عن طريق فخرهم ببطولاتهم، وانتصاراتهم، ثم تتابعت مفاهيمها حول القتل الشديد، فعرَّفها (ابن منظور) في معجمه (لسان العرب)، بأنها: "الوَقعَة العظيمة القتل، وقيل: مَوضِعُ القتال، وألحَمْتُ القومَ إذا قتلتهم" (١)، وفي الحديث الشريف: "يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة" (٢)، ثم نظر إليها (الجاحظ) نظرة شمولية، فاستعملها في: "الوقائع التي يتضمنها الشعر، ثم نقلها أدباء المغاربة، لما يقارب في المنظوم العامي معنى الشعر القصصي" (٣).

وقد اشتد به المرض، ولكنه لم يجد من يتوسط له عند ذوي النفوذ في الدولة؛ كي يعالج في إحدى المستشفيات المتخصصة، فقضى نحبه بالقاهرة في صمت، ولم تستطع أسرته أن تنشر له نعياً في الصحف، وقد غلب على شعره إيثار الموضوع الإسلامي في مواجهة الخصوم، مما أبعده عن الأوساط الثقافية، التي سيطر عليها فلول الشيوعيين، وكان يرى أن كل انحراف عن الشعر بأصوله وقوافيه المعروفة، هو هروب وعجز عن التعبير السليم به، وكان موفور الكرامة، لم يتملَّق، ولم يستصرخ، وله من اسمه نصيب في سُمُو الخُلُق، وأصالة الوجدان.

ملاحمه: (السموات السبع، عين جالوت، المحمدية في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، السموات السبع الثانية، أخناتون وهي مسرحية شعرية).

دواوينه: (المشاعل، نشيد الخلود، مصباح في الضباب، عندما يحرقون الشجر، النور الأخضر).

- ينظر: ذيل الأعلام للزركلي، أحمد العلاونة، المجلد الثالث، ص: ١٥٠-١٥١، ط: دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- ينظر: تحفة الزمن بترتيب تراجم أعلام الأدب والفن، أدهم الجندي، المجلد الرابع، ص: ١٤٣- ١٤٦، الناشر: دار المقتبس، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

(١) لسان العرب، الإمام: محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير- محمد أحمد حسب الله- هاشم محمد الشاذلي، ج: الخامس، ص: ٤٠١٢، ط: دار المعارف المصرية- القاهرة- مصر.

(٢) السنن الكبرى، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المتوفى سنة (٤٥٨ هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ج: التاسع، ص: ١١٩، ط: الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(٣) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، أخرجه: محمد سعيد العريان، ج: الثالث، ص: ١٤٦، ط: الأولى، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٥٩ هـ- ١٩٤٠ م.

ثم جاء (أبو زيد القرشي)(١) ، فانتقل-أيضاً- بمعنى (الملحمة) من موضع القتال، إلى الشعر الذي يقال في تصوير الحروب؛ لأن لفظة (ملحمة) في عهده، لم تكن منصرفة إلى معناها الذي جاء عند الغربيين في القتال نفسه، أو موضعه؛ وذلك لأن (إلياذة هوميروس) لم تكن معروفة عند العرب آنذاك، وإنما استعملت بمعناها اللغوي، الذي يعني: الشعر الذي يصور الوقائع، والحروب(٢).

وعلى هذا صارت الملحمة، تطلق على الوقعة الحربية، كما تطلق على الشعر الذي يصور تلك الوقائع البطولية، إلى أن جاء (ابن خلدون)، فذكر أن الملحمة (منظوم، أو منثور، أو رجز) يقال في حدثان الدول، فقال: "ثم كتب الناس بعد ذلك في حدثان الدول، منظوماً، ومنثوراً، ورجزاً، تسمى الملاحم" (٣).

ثانياً: المفهوم الأدبي للملحمة:

إن من يطالع خريطة الإبداع الأدبي في العصر الحديث، يجد أن اهتمام بعض النقاد بقضية الملاحم كان واسعا، من خلال محاولتهم لتحديد مفهوم لها في إطار يوضح مضمونها، فجاء تعريفها عند الأستاذ/ جورجي زيدان بأنها: "عبارة عن قصائد طويلة، تسرد الوقائع، والحوادث على سبيل القصة، وأكثرها دينية، وأبطالها الآلهة، ومعظم حوادثها عنهم وبِهِم، كما في (إلياذة هوميروس) عند اليونان، و (مهابهاراتا) عند الهنود" (٤).

(١) (أبوزيد القرشي) هو: أبوزيد محمد بن الخطاب البري القرشي، صاحب (جمهرة أشعار العرب)، توفي سنة ١٧٠هـ-٨٧٦م، ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص: ٤١٣- ٤١٤، ط: الأولى، دار الجيل، بيروت.

(٢) ينظر: شعر الحرب في أدب العرب، د/ زكي المحاسني، هامش ص: ٢٨٤، ط: دار المعارف، القاهرة.

(٣) مقدمة ابن خلدون، تأليف: العلامة ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (٧٣٢- ٨٠٨ هـ)، تحقيق وتخريج وتعليق: عبدالله محمد الدرويش، ج: الأول، ص: ١٨٤، ط: الأولى، دار يعرب، دمشق ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤ م.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، ج: الأول، ص: ٦١، ط: مؤسسة هنداوي للنشر ٢٠١٣ م.

كذلك عرفها الدكتور/ محمد غنيمي هلال بأنها: "قصة شعرية، موضوعُها وقائعُ الأبطالِ العجيبةِ، التي تُبَوِّئُهُم منزلةَ الخلودِ بين بني وطنهم، ويلعب الخيال فيها دوراً كبيرا؛ إذ تُحْكَى على شكل معجزاتِ ما قام به هؤلاء الأبطال" (١).

ومن هنا يتبين أن البشرية عرفت الملاحم عبر عصورها المختلفة؛ حيث إن الشاعر يصف الأحداث كما تتمثل في خياله، لا كما توجد في الواقع الذي وقعت فيه، فهي تتفاعل مع الأحداث تفاعلاً خيالياً، كما أن العرب استطاعوا أن يصوروا الملاحم، التي تتوافر فيها العناصر الملحمية المهمة تصويراً جاداً، ولكن لا ينبغي أن تُطَالَب الملحمة العربية، بأن تكون مماثلة للملحمة اليونانية في جميع خصائصها؛ لأن لكل أمة من الأمم خصائصها التي تميزها عن غيرها، وهذا ما أشار إليه الدكتور/ زكي المحاسني بقوله: "ولا ينبغي أن نُعَنّتَهُم، فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة كالملحمة اليونانية، في أناشيدها، وموضوعها، وحديثها؛ إذ ليس شرطاً في كل ملحمة، أن تحتذي الإلياذة، أو سواها من ملاحم الأمم العتيقة، أو الحديثة" (٢).

ثالثاً: تاريخ الملحمة الشعرية، وتطورها:

لكل شعب من الشعوب عراقته، وأصالته التي يعرف بها، من خلال تاريخه في المجد، وكذلك ماضيه الذي يتطلع إليه، وأبطاله الذين تُخَلِّدُ أسماؤهم بهالةٍ من القداسة في بطون الكتب، والذاكرة الإنسانية، وقد أجاب شعراء تلك الأمم داعي شعورها، فكانوا صدى لصيحات مجدهم الغابر، ومآثرهم الحاضرة، عن طريق نَظْم الملاحم التي سَطَّرُوا فيها كلَّ خصالِ العظمةِ، فلم يتوانى هؤلاء الشعراء في الإجادة بالحِكم الشعرية البليغة، ومزج أخبار الحرب والقتال، بأفانين الحب الإسلامي إلا وأجادوا في ذلك.

وهذا ما نَوَّه عليه الدكتور/ شوقي ضيف من خلال إشارته إلى أنواع الشعر، فقال: من المعروف أنه يوجد عند الغربيين أنواع مختلفة من الشعر، يَرُدُّها نقادهم إلى أربعة أضرب، وهي:

---

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص: ٦١، ط: دار الثقافة، لبنان ١٩٧٣ م.

(٢) شعر الحرب في أدب العرب، د/ زكي المحاسني، ص: ٢٣، ط: دار المعارف، القاهرة.

شعر (قصصي، وتعليمي، وغنائي، وتمثيلي)، ويمتاز الضرب الأول الذي يعنينا: بأن قصائده طويلة، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث، التي تنعقد حول بطل كبير، وقد يوجد بجانبه أبطال آخرون ولكن أدوارهم ثانوية، وهي في حقيقتها قصة إلا أنها كُتِبَتْ شعرا، والآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع، وخير ما يمثلها عندهم (الإلياذة لهوميروس)، والتي نقلت إلى العربية على يد (سليمان البستاني)، وغير ذلك من القصائد القصصية التي تشبهها للأمم القديمة والحديثة، ك (الإلياذة لفرجيل) عند الرومان، و (المهابهاراتا، والرامايانا) عند الهنود، و (الشاهنامة للفردوسي) عند الفرس، و (أنشودة الظلام) عند الألمان، و (أنشودة رولان) عند الفرنسيين(١)، ومن ثم كثرت الأساطير في موضوعات الملحمة، فتنوعت أشكالها الفنية عند كثير من الأمم، كملاحم العصور الوسطى، ومنها: "الملحمة الإنجليزية (بيولف) في القرن الثامن الميلادي، والفرنسية (أغنية رولان) في القرن الثامن عشر الميلادي، والإسبانية (قصيدة اليد) حوالي ١١١٤م، وبحلول القرن السابع عشر الميلادي، أُعِيد اكتشاف الملاحم الشعرية الرومانية، وقام الشاعر الإنجليزي الشهير/ جون ميلتون، بتقليد (هوميروس)، و (فرجيل) في ملحمته الشهيرة (الفردوس المفقود) عام١٦٦٧م" (٢).

بينما جاءت (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي/ دانتي منفردة، لا تسير على خطى الملاحم السابقة؛ لكونها دينية، يغلب عليها الطابع الرمزي، فصاحبها (دانتي) يخالف فيها (هوميروس) من الجانب الموضوعي في ملحمتيه؛ حيث إنها "سميت في البداية بـ (الكوميديا)، ثم أضيفت لها كلمة (الإلهية)، وهي تختلف كثيراً عن ملحمة (هوميروس)؛ ذلك أن موضوعها ديني صِرْف، بيد أن (دانتي) يحاول أن يُقَرِّب ذلك العالم إلى العالم الواقعي، زمن العصور الوسطى بحروبه، وتقاليده، وأخطائه" (٣).

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د/ شوقي ضيف، ص: ١٥٠، ط: دار المعارف- الطبعة الثامنة.

(٢) فن الملاحم (الأصول، النشأة، التطور- أوديسة هوميروس)، محفوظ كحوال، ص: ٨، ط: دار توميديا للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٩م.

(٣) الأجناس الأدبية، محفوظ كحوال، ص: ١٧١، ط: دار توميديا للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٧م.

و (الكوميديا الإلهية) التي ينشدها (دانتي) إنما هي رحلة، تعد بمثابة الهروب من الواقع الأليم، الذي ساد العصور الوسطى، فهو يرى أنها "رحلة كلّ نفسٍ في هذا العالم الأرضي، تنشد سعادتها الخالدة، وغايتها العظمى، وعقيدتها، وحُسن إفادتها من حريتها" (١)، وهذا يوضح أن " (دانتي) عاش في عصرٍ مضطربٍ، عاصفٍ، مُمَزَّق، وقد غاص في جوانب هذه الآلام، شأن الصفوة من المفكرين، ورحل في جحيمه؛ ليتعمق آلامه، وبقدر شهادته على العصر، كان سُمُوّه، ونُبْلُه في التنبُّؤ بالخلاص" (٢).

والفاحص المتعمق للأدب العربي في عصوره المتعاقبة، يلاحظ كَمًّاً هائلًا من الشعر بألوانه المختلفة، التي صورت العرب في جميع المراحل الحياتية المختلفة، مما أثار حفيظة بعض الأدباء لأن يقولوا: "ليس أحد من العرب، إلا وهو يَقدر على قول الشعر" (٣)، ولهذا كانت "الجاهلية خير بيئة مهيئة؛ لنشوء الملاحم، بفضل ما فيها من أحداث، وبطولات، وأساطير، وفروسية، وعصبية، ووصف لميادين القتال" (٤).

ثم انتقلت البشرية إلى عهد جديد من العلم، والنور، اللذين خرجا من عباءة الدين الإسلامي، فإذا بالرواة رواد العلم، والأدب، والدين، في الأمم المتعاقبة، يقُصُّون أخبار البطولات الخارقة، والأعمال المجيدة، على جمهور كبير من الناس، يلتف حولهم، عن طريق حكايات طريفة، وروايات مُنَمَّقة (٥).

---

(١) الأدب المقارن، د/ محمد غنيمي هلال، ص: ١٢٨، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨م.

(٢) الأدب المقارن، د/ محمد غنيمي هلال، ص: ١٢٨، بتصرف يسير.

(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج: الثاني، ص: ٥١.

(٤) الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه (ابن كلثوم- ابن حلزة- ابن شداد)، جورج غريب، ص: ٩- ١٠، ط: سلسلة الموسوعة في الأدب العربي، نشر وتوزيع دار الثقافة – بيروت.

(٥) ينظر: الأدب القصصي عند العرب، د/ موسى سليمان، ص: ٧٨، ط: دار الكتاب اللبناني- بيروت، الطبعة: الرابعة، بتصرف.

مما يساعد على إلقاء الضوء على أن للعرب ماض حافل بالأعمال الأدبية الجليلة، التي جعلت بعض النقاد المستشرقين يدرسونها، وبعض العلماء يقفون على خصائصها، كلٌ منهم بنظرته النقدية الخاصة، فمنهم من أنصف العرب، فرفعهم إلى أعلى الدرجات، وأقَرَّ على إلمامهم بجميع الفنون الشعرية، ومنهم من تعصب عليهم، فأنكر إلمامهم ببعض الفنون الأدبية، كـ (الملاحم، والقصص)، وهؤلاء كانوا من الكثرة بمكان، بحيث رأينا عدداً ليس بالقليل من نقادنا العرب، قد تأثروا بهم، وساروا على دربهم، في إنكارهم لهذا الجنس الأدبي في أدب العرب.

فقال أحدهم: "إن العرب بفطرتهم، لم يكونوا يميلون إلى القَصص المعَقد، الذي وُجِد كثيرٌ منه فيما أُثِر عن اليونان القدماء، وذاع عند الانجليز، والروس.." (١).

وقال أديب ثان متحدثاً عن فن القصص: "وله عند الفرنجة مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة، أما عند العرب: فلا خطر ولا عناية؛ لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه" (٢).

وممَّن سار في هذا الاتجاه: الدكتور/ شوقي ضيف، الذي وصف الشعر العربي بأنه (غنائي) فقط، فقال: "إننا لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي؛ إذ يماثل الشعرَ الغنائي الغربي من حيث إنه ذاتي، يصور نفسية الفرد، وما يختلجه من عواطف، وأحاسيس" (٣).

ومثل هذه الشواهد وغيرها تقول: بأن العرب، لم يكن لهم دراية بفن الملاحم القصصية، ولا يُعَدُّ فناً قائماً بذاته، كما أنهم لم يهتموا بالتراث القصصي اليوناني وغيره، فينظروا فيه ولو نظرات عابرة؛ ليتأثروا به من خلال ترجمتهم ولو لبعضه، كما فعلوا في بقية العلوم اليونانية والفلسفية.

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع، د/ زكي مبارك، تقديم: عثمان غزال، ج: الأول، ص: ٢٠٤، ط: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٩٧١ م.

(٢) تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص: ٢٤٧، ط: دار الثقافة، بيروت- لبنان.

(٣) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، د/ شوقي ضيف، ص: ١٩، ط: دار المعارف، القاهرة، بتصرف يسير.

لكن على الجانب الآخر، كان هناك بعض المؤيدين المدافعين عن وجود الملاحم العربية، ومنهم الدكتور/ عبد الحميد يونس، الذي يرُد على هؤلاء المنكرين فيقول: "ومن الأخطاء التي شاعت بين النقاد، ومؤرخي الأدب، والتي استقرت حتى كادت تصبح من المسَلَّمات، أن الأدب العربي بعامة، والشعر منه بخاصة، لم يعرف الملحمة، وهو الخطأ الذي اتخذ صبغة القانون الفلسفي على يد (آرنست رينان) الفرنسي، وسَلَّم به المستشرقون، ووافق عليه بعض الدارسين العرب، ومصدر هذا الخطأ: القول بأن العقلية العربية قاصرة بفطرتها عن إنشاء الملحمة، وأنها تنزع دائماً إلى التجريد، وتنفر من التجسيد، والتشخيص..." (١).

كما أدْلَى الأستاذ/ سليمان البستاني بدلوه في ذلك، فأقَرَّ بوجود الملاحم العربية، وإن كانت تختلف عن الملاحم اليونانية، فقال: "لا سبيل للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية، على نحو ما يراد منها بِعُرْف الإفرنج، ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصصي، مما يعزّ وجوده في سائر اللغات، وذلك في الملاحم القصيرة، المقولة في حوادث مخصوصة، فجميع شعراء الجاهلية، وبعض المخضرمين، قد سلكوا هذا المسلك، وأجادوا فيه، ولو تصفحت كتاب (الأغاني، ومفضليات الضَّبِّيّ)، وأمثالهما من كتب الأدب والشعر، لرأيتها ملآى بهذه المنظومات الغراء" (٢).

وهذا يبرهن على أن العرب منذ الجاهلية، كان لديهم شعرٌ مُتَّسِمٌ بالحِسِّ الملحمي، وإن كان لا يتفق مع الشعر الملحمي اليوناني تمام الموافقة، مما يؤكد على أن "المعلقات رأس الملاحم العربية، وأقربهن إلى منظومات الشعر القصصي، ففي معلقة (الحارث بن حلزة)؛ إفاضته في وقائع بكر، وتغلب، وتغنيه بفوز قومه، ونكال عدوه، ومفاخر عشيرته، ما يماثل تغني (هوميروس) في الإلياذة، ويليها بهذا المعنى معلقة (عمرو بن كلثوم)، ثم معلقة (زهير) " (٣).

---

(١) دفاع عن الفولكلور، د/ عبدالحميد يونس، ص: ١٧٦، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ م

(٢) مقدمة الإلياذة- سليمان البستاني، تأليف: جورج غريب، ص: ١٧٢، ط: دار الثقافة- بيروت.

(٣) مقدمة الإلياذة- سليمان البستاني، ص: ١٧٢.

رابعاً: الملاحم العربية في العصر الأدبي الحديث:

توالت على الأمة العربية أحداث جسام، كان لها أبلغ الأثر في إضعاف مستقبلها، ومن أخطرها: هذا الدمار الذي حلَّ ببغداد، وقت سقوطها على يد التتار، الذين عُرِفوا بالوحشية، وعاشوا على شن الغارات؛ للقضاء على حضارة المسلمين.

ولم يكتف هؤلاء (التتار) بما خلفوه من دمار لهذه الحضارة، التي كانت منتشرة في شتى بقاع العالم الإسلامي الشرقي، بل حاولوا النَّيْل من مصر، فتصدى لهم المصريون عند زحفهم إليها، في الموقعة الشهيرة بـ (عين جالوت)؛ حيث تمكنوا من ملاحقتهم وهزيمتهم في كل مكان توجهوا إليه، ثم أعقبهم (الصليبيون) الذين جاءوا من الغرب تحت راية الصليب، يخفون مطامعهم في الشرق الإسلامي، فقضى عليهم المصريون في معارك، استمرت عدة قرون، وانتهت بعد ذلك بتطهير البلاد منهم.

ولم تكد البلاد تأخذ قسطاً من الراحة بعد هذه الحروب العنيفة، حتى جاء (العثمانيون) من الشمال بخيلهم وعتادهم، فأخضعوا البلاد العربية لسلطانهم، وعملوا جاهدين على نقل العلماء العرب، وخزائن الكتب إلى عاصمتهم، بل إنهم حاولوا القضاء على اللغة العربية، وجَعْل لغتهم هي لغة التخاطب الرسمية للبلاد، الأمر الذي أضعف الشعر العربي بجميع ألوانه، بما فيه الشعر الملحمي؛ حيث اهتم الشعراء اهتماماً كبيراً آنذاك، بالزخارف اللفظية المعبرة عن العواطف الجياشة، والمعاني الدقيقة، ومن ثم لم يستطع الشعر العربي أن يؤدي دوره في تصوير الوقائع الحربية.

وفي هذا الوقت الذي لم يستطع فيه الشعر العربي الفصيح أن يقوم بدوره، حاول الشعر العامي أن يقوم بتلك المهمة، عن طريق تأليف عدة ملاحم شعبية، من أمثال: ملحمة (أبي زيد الهلالي) وغيرها، التي "اعتصم بها الوجدان القومي العربي، عندما رأى الشعر الفصيح، لا يفِي

بجميع حاجاته الفنية، وبخاصة عندما رأى عناصر غير عربية تحكم، وتغلُّ إرادته، وتستأثر بخيرات بلاده، فانتخب حلقات من الفروسية العربية، وصاغها ملاحم، يتغنى بها، ويحفظها" (١).

ظلت الحالة الأدبية هكذا، حتى جاءت حركة (الإحياء والبعث) التي قادها (البارودي) في مطلع العصر الحديث، وعملت على إحياء التراث العربي القديم، فأنشأ قصيدة كبرى مؤلفة من (سبعة وأربعين وأربعمائة) بيت، بعنوان: (كشف الغمة في مدح سيد الأمة)، وفي مطلعها يقول على وزن (بحر البسيط التام) (٢):

يا رَائِـدَ البــرْقِ يَمِّمْ دَارَةَ العَلَـمِ واحْدُ الغَمَامَ إلى حَيٍّ بِذِي سَلَمِ

ثم ظهور عدة مطولات ملحمية، كـ (نهج البردة) المؤلفة من (مائة وتسعين) بيت لـ (أحمد شوقي)، والتي يقول في مطلعها على وزن (بحر البسيط التام)(٣):

رِيمٌ على القاعِ بين البَانِ والعَلَمِ أحَلَّ سَفْكَ دَمِي في الأشهرِ الحُرُمِ

وكذلك ظهور ترجمة (الإلياذة) على يد (سليمان البستاني) عام ١٩٠٤م، فكل هذا وغيره، كان سبباً في إيقاظ النفس الشاعرة، لحاسة الفن الشعري الملحمي، عن طريق بعض الأسباب التي أسهمت في ظهور الملاحم والمطولات، ومنها:

(١) ظهور هذه الملاحم والمطولات في حقبة من الزمن، كانت فيها قسوة المستعمر في البلاد العربية، قد بلغت مداها، فأراد الشعراء أن يسهموا بنصيب وافر فيها، فراحوا يبرزون أمجاد الأمة العربية، وأبطالها الإسلاميين (٤).

(٢) إرادة بعض المخلصين للعروبة والإسلام، على إظهار الصورة الحقيقية للهوية العربية والإسلامية لشباب المسلمين، بعد تشويهها من الدعوات التبشيرية.

---

(١) دفاع عن الفولكلور، د/ عبدالحميد يونس، ص: ١٧٦.

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة، محمود سامي البارودي، ص: ٢، ط: الجريدة ١٣٢٧ هـ.

(٣) ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، ج: الأول، ص: ١٩٠، ط: الإستقامة.

(٤) ينظر: الملحمة في الشعر العربي، سعد الدين الجيزاوي، ص: ٤٠، بتصرف.

(٣) وجود الأثر الواضح لبعض نشطاء حركة النهضة الإسلامية الجديدة، كـ (جمال الدين الأفغاني) الذي أخذ على عاتقه أن يحث الأدباء من حوله على النهوض بشعر الملاحم قائلاً: "إنه لَيَسُرُّنا جداً أن نفعل اليوم، ما كان يجب على العرب أن يفعلوا قبل ألف عام ونيف، ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون، بادروا إلى نقل (الإلياذة)، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها" (١).

وعلى هذا كثرت الملاحم، والمطولات في الشعر العربي الحديث، والتي تمثل مرحلة من مراحل النمو، والازدهار للملحمة العربية في العصر الحديث.

(١) الإلياذة، سليمان البستاني، جورج غريب، ص: ٢٥، ط: دار الثقافة، بيروت.

الفصل الأول

الدراسة الموضوعية لملحمة (السموات السبع)

يكاد يجمع النقاد على أن للإسلام أثره البالغ، في الأدب العربي الذي قيل بعد ظهوره "فكانت الأديان من الينابيع الأولى، لأنواع شتى من الأدب في كثير من الأمم، وما زالت الأديان السماوية ينابيع، يستقي منها الشعراء، والقصاص، فيستمدون منها موضوعات، ويستوحون ألواناً من الصور، والأخيلة، والأفكار" (١).

ولقد كان الشاعر/ كامل أمين شغوفاً بدينه منذ فجر شبابه، فأخرجت لنا قريحته الشعرية الكثير من القصائد الملحمية، التي استقى منابعها من الأسس الإسلامية، وإذا كان الشاعر قد حلَّق بشعره في هذا الاتجاه الملحمي، فقد كانت هناك عدة روافد، أعانته في أن يسلك هذا الاتجاه، ومنها: اعتماده على كتاب الله، وسنة رسوله، واستلهامه لبعض الأفكار المقتبسة من القصص القرآني، ثم تحليقه في آفاق التاريخ الإسلامي؛ لكي يعالج واقعاً مريراً، من خلال ذِكر الماضي العريق للأمة الإسلامية، عن طريق هذا البحث المعنون بـ (ملحمة "السموات السبع" دراسة في المحتوى والفن)، والذي اشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: **النور القديم**.

المبحث الثاني: **معبر الأجيال من اللاوجود البشري إلى الوجود**.

المبحث الثالث: **موقف صلاح الدين الأيوبي من الحروب الصليبية**.

المبحث الرابع: **شجاعة الظاهر بيبرس في محاربة التتار**.

(١) الإسلام في شعر شوقي، د/ أحمد الحوفي، ص: ٣، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المبحث الأول

النـــور القديـــم

المتأمل في مجال الدراسات الأدبية لملحمة (السموات السبع) عند (كامل أمين)، في هذا المبحث الذي نحن بصدد دراسته، يجد أن القرآن الكريم يمثل رافداً مهماً في هذا الجانب الشعري؛ حيث استلهم الشاعر جزءاً كبيراً من القصص القرآني، أثناء نظمه لملحمته (السموات السبع)، وذلك من خلال أفكار عرضها في صورة شعرية، تجسد لنا الفكرة التي خرج بها.

فقد تناول في هذا المبحث، الذي عنونه بـ (**النور القديم**) قصة خلق (آدم)، وما صار من أمره هو وحواء في الجنة، حتى نزلا إلى الأرض، بعد ارتكاب ما وقعا فيه، وهذه القصة التي صدَّرها الشاعر ديوانه، من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم(١)، فقد بدأ ملحمته بالحديث عن الإعجاز الإلهي في خلق (آدم) من غير أب ولا أم، ثم (حواء) من العدم، مشيراً في ذلك إلى كونه–سبحانه– خلق من الضعف قوة، ومن السكون حركة؛ فجاء نظمه معبراً عن هذه القضية في ملحمته قائلاً (٢):

كانَتْ قَدِيماً خَلْفَ أسْوَارِ السَّمَا ... مِنْ قَبْلِ أنْ يَحْيَا التُّرَاب ويَعْلَما

مِنْ قَبْلِ أنْ يَرِدَ الوجود خطيئة ... ويَرَى بِعَيْنَيْـهِ المَدَامِعَ والدَّمَا

نَفْسٌ أراد اللهُ أنْ تَحْيَـــا لأمْـ ... ـرٍ ما.. لتَسْعَدَ فيـه أو تتـألما

نفسٌ كأنِّي كنت في أعصابها ... روحـاً مُطَلْسَمَةً ولُغزاً مُبْهَما

(١) ذكرت في سور (البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص).

(٢) ملحمة السموات السبع، الشاعر/ كامل أمين، ص: ٧، ط: الشبكشي بالأزهر، القاهرة ١٣٧٨ هـ.

فقد استند الشاعر إلى أن الله –سبحانه– يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فاستحضر في ذهنه الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، واستوعبت الدنيا والآخرة، وأنها لا تنال إلا بالتراحم بين الناس (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)(١) ، وهذا ما عبر عنه قائلاً (٢):

يَرْنُــو إليْــهِ اللهُ فِــي إشْفَاقــةٍ ... ويَكَــادُ قبْــلَ ذنُوبِــهِ أنْ يرْحَمَا

حتَّى إذا قَضَت المَشِيئةُ مَا قَضَتْ ... ويَكَــادُ قبْــلَ ذنُوبِهِ أنْ يرْحَمَا

ثم يأخذ في الحديث عن الجنة، وما فيها من نعيم مقيم، وملائكة من نور، ومدى فرح (آدم) بخلق (حواء)، ثم يصور عملية الإغواء التي قام بها الشيطان لآدم وحواء، تنفيذاً لوعده بإغوائهما، وذريتهما؛ مما كان سبباً في خروجهما من الجنة، فصور ما دار من حوار بينهم قائلاً(٣):

قالتْ. أرَى الدُّنْيَا تَضِيقُ فقال كَيْ ... ـفَ تَضِيقُ. مَاذا جَدَّ فِي دُنْيَاكِ

الجَنَّــةُ الخَضْــرَاءُ حَوْلَيــنَا وعَيـْ ... ـنُ اللهِ تَرْعَانِــي كمَا تَــرْعَاكِ

عجَبــاً أتُنْكِرُ عَيْنُكِ الدُّنْيَا وكُلُّ ... سَمَــائِـهَا ونُجُومُهـا عَيْـناكِ

قالَـتْ لـهُ يَـوْمٌ يُكَـرِّرُ نفسَــهُ ... فِي عُمْرِنا. قالَ اشْكُرِي مَوْلاكِ

مَا كُنْتِ شَيْئاً مَا فَصِرْتِ بِفَضْلِهِ ... شَيْـئاً وأعْطَــاكِ الـذِي أعْطَاكِ

ثم ينتقل الشاعر بالحديث عن إبليس وموقفه، فوصفه بالغرور، والكبرياء؛ لأنه ظن أنه أفضل الخلق جميعاً، ملائكةً، وجِنّاً، وبشرا، فوصف تطلّعه إلى السماء العليا، كاشفاً عن إغوائه لِمَن بها من الملائكة، بمكره الخبيث، ودهائه اللئيم، ولكن هيهات له ذلك، فَهُم ملائكة الله،

(١) صحيح مسلم (كتاب الجنائز– باب البكاء على الميت)، الإمام/ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ج: الثاني، ص: ٦٣٥– ٦٣٦، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، بدون.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٢١.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

عصمهم ربهم من كل كيدٍ، وغوايةٍ؛ لأن الملائكة عرفوا عُلُوّ مكانة (آدم)، فهوَوْا بالسجود له، تقديراً، وإجلالاً، ولكن إبليس حَسَدَ (آدم) على ما أعطاه الله له من الفضل، زاعماً أنه أفضل منه؛ لأن (آدم) خلقه الله من الطين، أما إبليس فقد خُلِق من النار، والنار في زعمه أفضل من الطين، وقد أخطأ إبليس في زعمه، حين استكبر، وخالف أمْرَ ربه، وخرج عن طاعته، في عدم السجود لآدم، ومن ثم لجأ إلى غواية (آدم)؛ بسبب عقاب رَبّه له بطرده من باب رحمته، ونزوله إلى الأرض مذموماً مدحورا، وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله(١):

وَرَآهُ إبْلِيسٌ فقــالَ.. لِأَيِّ شَـيْ ... ءٍ أُيُّـهَـذا يَا تُــرَى رَبِّـي بَـرَاكْ

مَنْ أنْتَ يَا شَبَحَ التُّرَابِ. وكَيْفَ صِرْ ... تَ هُنا علَى وَطَنِ المُطَهَّرِ كالمَلاكْ

مَاذا يُـرِيـدُ اللهُ مِنـكَ؟ ومَـا الـذِي ... سَتُفِيـدُهُ مِنْ بَعْدِ مَا يَجْيَـى ثَرَاكْ؟

وحينئذ تأتي غوايته الأولى مع (آدم، وحواء)؛ بإخراجهما من الجنة، بعدما كانا يتمتعان فيها، بكل ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وعاشا بها قبل إخراجهما، يرشفان من مناهل السعادة الربانية، فعَزَّ على إبليس أن يرى نفسه مطروداً من رحمة الله، ويرى في الوقت ذاته (آدم، وزوجه)، وهما ينعمان في الجنة، فعقد على إثر ذلك نيته في تقويض عرش سعادتهما، وعمد إلى (حواء)، ثم أخذ في استمالتها إلى حديثه، وغوايته لها، عن طريق بغضه لآدم، مُوهماً إياها بأنه صادق في النصح، وراح يوسوس لهما ليأكلا من الشجرة، فنجحت حيلته في إغوائهما، وأكلا من الشجرة، فهبطا إلى مرتبة الدنيا؛ جزاءً لهما على معصية ربهما، وفي هذا يقول (كامل أمين)(٢):

وإذ بإبْلِيسٍ يَــرَى حُـورِيَّــةً ... تَصْغَــى إلَيْــهِ وتَسْتَحِي أنْ تَنْظُرَا

كانَ الجَمَالُ يُنِيرُ مِنْ فَرْطِ الصِّبَا ... إنْسَــانَ عَيْـنَيْـهِ وَيَسْلبُــهُ الْكَــرَى

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨.

قالَتْ لَهُ: مَنْ يَا تُرَى هَذا الجْدِيـ ـدُ؟ ومَن يَكُونُ؟ ومَنْ سَيُصْبحُ يَا تُرَى؟

جَسَـدٌ بِلا رَوْحٍ وصُـورَةُ فـارِغٍ فأجَابَهَـا إبْلِيـسُ رِفْـقاً بالـذُّرَى

هَذا مِـن الصِّلْصَـالِ!! مِنْ فُخَّارَةٍ أتَشْتَهِيـنَ بِخُلْـدِنـا هَـذا الثَّـرَى

ثم تأتي الأبيات متحدثة عن هذا النور الذي خلقه الله بقدرته، وعلَّمه الأشياء التي لم يُعَلِّمْها لغيره، وكيف أن الله خصَّه بأفضال كريمة خلصت له دون غيره، فقد نفخ الله فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وفضَّلَه على كثير ممن خلق تفضيلا، وقد أشارت الأبيات موضحة هذا النسق القرآني العظيم في إقبال الملائكة على (آدم) مُعَظِّمين له، من خلال نظم شعري بديع(١):

وإذا بِنُـورِ اللهِ يَسْطَعُ آخِـذاً أبْصَـارَهُـمْ فكَأنَّهُـمْ لا يَـنْظرُونْ

وإذا المَلائِـكُ مِنْ جَـلالِ اللهِ خَا شِـعَةٌ وجُـوهُهُـم فظلُّـوا مُطْرِقِيـنْ

وإذا بِصَـوْتِ اللهِ يَهْتِـفُ قَـائِـلا يَـا أيُّـهَا الْمَلِكُ. افعَلُوا مَا تُؤْمَرُونْ

إنِّـي خَلَقْـتُ الطِيـنَ إنساناً وأعـ ـلَمُ مِنْ ضَمِيـرِ الغَيْبِ مَا لا تَعْلَمُونْ

ثم تتوالى الأبيات متحدثة عن كيد الشيطان، واعتراضه على السجود لآدم؛ مُعللاً عدم سجوده له بأنه "خيرٌ من آدم عنصراً، وأزكى منه جوهراً" (٢)، فعاقبه الله على عصيانه منادياً إياه قائلاً: "قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) " (٣)، فطلب إبليس من الحق —سبحانه– أن يؤجل عقابه، فاستجاب الله له، وبعد استجابة الله لطَلَبِهِ بتأجيل حسابه، ونظره إلى الوقت المعلوم، لم يَشكر لله فضلَه، بل قابل نعمته بالجحود، والكفران، واعتزم

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٩– ١٠.

(٢) قصص القرآن، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى– محمد أبو الفضل إبراهيم– علي محمد البجاوي– السيد شحاته، ص: ٣، ط: ١٣، ط: مكتبة دار التراث ١٤٠٥هـ– ١٩٨٤ م.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٣٤– ٣٥.

إغواء الناس، "قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) " (١)، وهذا ما صوره الشاعر بقوله(٢):

وإذا بِصَـوْتِ اللهِ يَهْتِـفُ قَائِـلاً ... أُخْـرُجْ طَرِيـداً. قالَ فَانْظِـرْنِي مَعَهْ

سَأُرِيهِ كَيْفَ يَضِلُّ عَنْ قَبَسِ السَّمَا ... ءِ وَكَيْفَ يَخْبُثُ فِي السَّمَا أنْ تَرْفَعُهْ

قَـال الإلَـهُ لَـهُ فإنَّـكَ مُنْظَرُه ... لِلْبَعْثِ. فاحْشِدْ مَا حَشَدْتَ لِتُخْضِعَهْ

ولأحْشُـرَنَّكُمْ جميـعاً يَـوْمَ لا ... تُجْدِي الشَّفَاعَةُ فِيهِ أو تُغْنِي الدَّعَهْ

أُخْرُجْ.. وشَاءَ اللهُ أنْ يَمْضِي فكَا ... نَ مُضِيُّـهُ للأرْضِ بَـدْءَ المَعْمَعَهْ

وبعد أن عقد إبليس نيته على سلبهما نعمة ربهما عليهما، حدَّثَ (آدم) في سِرٍّ وخفاء، وأوهمه بأنه صادق الوعد، مخلصٌ في النصح، فاغترَّا بقوله، وافتُتِنا بزخرف لفظه، فلمَّا خرجا عن أمر ربهما، سلبهما نعمته، وحرمهما جَنَّتَه، "وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) " (٣)، وهذا ما صوره الشاعر بقوله(٤):

وتَـدَخَّـلَ الشيْطانُ لَكِـنْ هامِساً ... فِي جِسْمِ (آدَمَ) كَالرَّدَى والدُّودِ

الله قَـــدَّرَ كـلَّ شيْءٍ ليْسَ لِلْ ... إنْسَـانِ أنْ يَخْتَـارَ أيَّ جَدِيدِ

فإذا أكَلْتَ فإنَّ ذلك كـان مَقْ ... ـدُوراً أجَلْ مِنْ قبْلِ. قَبْلِ وُجُودِي

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦- ١٧.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

(٤) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٢٢.

إلا أن (آدم، وحواء) ندما على معصيتهما، فعلم الله بما يَجُول بخاطرهما، ووقف على ما تطَلَّعَتْ إليه أنفسُهما، فتاب عليهما، وغفر لهما زلتهما، ومن ثم انبثق الأمل لديهما بالبقاء في جنة ربهما، لكن الحق –تبارك وتعالى– أمرهما بالهبوط منها، وأنبأهما أن العداوة بينهما وبين إبليس قائمة؛ ليحذرا فتنته، ولا يُصْغِيَا إلى إغوائِهِ لهما، وذلك في قوله: "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) " (١)، وبهذا يكون طور النعيم الرباني، قد انتهى لهما بخروجهما من الجنة، فلم يجدا أمامهما إلا أحد أمرين: إما الهدى، أو الضلال "فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) " (٢)، وهذا ما عَبّر عنه الشاعر بقوله(٣):

اليَوْمَ أصْبَحَ آدَمٌ فِي الأرْضِ والـ ... ـخَيْرُ اسْتَفَزَّ الشَّرَّ فِي دُنيَانا

العنصرُ البشريُ مصباحُ السَّما ... ءِ أتَى لِيَمْحُو فِي التُّرَابِ دُجَايَا

إنَّ الَّذِي نَوَّرَ السَّمَاءَ بَقَلْبِهِ ... لَمْ تَجْنِ عَيْنِي مِنْهُ غَيْرَ عَمَايَا

واللافت للنظر في هذا التصوير الرائع، دِقَّة الشاعر، وسعة اطلاعه، ولذلك كان الباحث حريصاً على تتبع هذا النسق الشعري، بصورة شبه كامله لأحداث هذا القصص القرآني العجيب؛ حتى تتضح المقدرة الفنية الشعرية لـ (كامل أمين)، فحينما أراد الشاعر أن يعالج هذه المخالفة، التي وقعت من المخلوق في حقِّ الخالق، بَيَّن أنَّ الذي يُسأل عن الخطأ إنما هو الإنسان، ولا ينبغي له أن يحتج بالقضاء والقدر، عندما يقع في الخطيئة، وقد ظهرت هذه المعالجة لهذه القضية لدى الشاعر/كامل أمين، من خلال نسقٍ شعريٍ سلس، وأسلوبٍ سهلٍ ممتع، لا يحتاج إلى تفصيل، أو تدقيق نظرٍ، أو إعمال فِكْر؛ للبحث عن الحقيقة، وفَكِّ رموزها.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٣١، ٣٢.

المبحث الثاني

معبر الأجيال من اللاوجود البشري إلى الوجود

عندما خلق الله الأرض، لم تكن كما هي عليه الآن، فكانت مليئة بالبحار، وكانت الأمواج ثائرة، والبراكين مشتعلة، والرياح عاصفة، ولم تكن هناك حينئذ حياة موجودة لا في البر، ولا في البحر، إلى أن ظهرت بعد مرور الدهور بعض النباتات البسيطة في البر، ثم الحيوانات كالزواحف وغير ذلك، وكذلك بعض الأسماك في البحر، ثم خلق الله من الطين الناتج من عملية ذوبان الثلوج، الذي كان من أسباب خصوبة الأرض بعد مزجها بالماء، ما يشبه هيئة الكائن البشري، وهو الإنسان.

هذه الهيئة البشرية التي خلقت من الطين، سبَّبَ الله لها أسباب الحياة بعد نفخه فيها من روحه، وكان من أسباب ذلك: خلْقُ (آدم) في صورة بشرٍ سوي، ثم خلق (حواء) من ضلع آدم، ثم جاء تكريم الله لهما، فأسكنهما في جنته، حتى وسوس لهما الشيطان؛ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما، وأكلا من الشجرة التي حرمها الله عليهما، فحُرِمَا من نعيم ربهما في جنته، ثم هبطا منها إلى الأرض.

هذه المضامين القرآنية الباهرة، التي تمثلت في مولد التاريخ الإنساني، وكيفية استقبال الأرض للإنسان، تناولها الشاعر/كامل أمين في هذا المبحث، من خلال أبيات رائعة، عنون لها في ملحمته (السموات السبع) بـ (بين الظلام والنور)، فقال(١):

قِفْ بِي فهَذا مَوْلِدُ التَّارِيخِ فِي ... أَرْضِ الفَنَـاءِ ومِـذوَدِ الأَزْمَـانِ

اللَّيْـلُ مُلْتَطِـمُ العُبَـابِ كَأَنَّهُ ... شَطُّ الظلامِ علَى الوُجُودِ الثانِي

والدَّهْـرُ يَبْـدأ فِي طُفولَةِ عُمْرِهِ ... شيْخـاً يَمُـدُّ يَـداً لِكـلِّ مَكَانِ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٥٦.

وعندما هبط (آدم) إلى الأرض، كان حاملاً لعقيدة التوحيد، واستمر التوحيد في ذريته عدة قرون؛ حتى انحرفت الفطرة التي خلق الله الناس عليها؛ بتوغل الشياطين فيها، ومن ثم تراكمت ألوان الشرك في النفوس، فصورها الشاعر قائلاً(١):

بـدأت حيـاةُ الأرض باسم الله إنّ ... ـي أستعيـذ بـه من الشيـطانِ

وتنـاول القلم العتيـق وخَـطّ أوّ ... وَلَ صفـحـةٍ ويـداه تـرتعشـانِ

كتَبَـتْ يـداه إنَّ هذه قصةُ الدُّنْ ... ـيـا وتـلك إرادةُ الرحمـــــنِ

ومنذ ذلك الوقت، والتاريخ الإنساني يُمثل صراعاتٍ قويةً بين أتباع الهدى، وأتباع الضلال، وهذا ما يبدو جلياً للمتأمل في تاريخ البشرية؛ إذ إن المنهج الرئيسي لكل نبي من الأنبياء في تبليغ دعوته واحد، كما أن مواقف أهل الجاهلية من الأنبياء واحدة؛ لأن الجاهليات بشتى صورها، تمثل أمة واحدة في العقائد التي يتبنونها، يقابلها على الجانب الآخر: الحزب الذي دعا إلى الله، والمتمثل في الرسل، وأتباعهم الداعين إلى الحق، وهذا ما ساقه الشاعر لنا في أروع أمثلته من ملحمته، حين أراد الاستشهاد على كلامه ببعض الأنبياء الذين وقفوا أمام الباطل والجهلاء من أقوامهم كالجبال الرواسي، ومن هذه النماذج التي أوردها الشاعر في نسقه الشعري البديع: حديثه عن قضية الصراع بين الحق والباطل، مستشهداً بنبي الله (موسى)، وعدو الله (فرعون) الذي ادعى الألوهية، وقد أورد اعتماد (فرعون) في ذلك على السحرة والكهنة، في تعضِيد موقفه، وادعاءاته الباطلة، من خلال تحويل السحرة لحبالهم، كأنها تسعى كالحيَّات والأفاعي، ولكن الله الذي يدبر شئون خلقه على مقتضى حكمته، لم يأذن لهذه الأباطيل أن تنتصر على الحق، فأوحى إلى نبيه (موسى) بإلقاء عصاه أمام (فرعون) وسحرته؛ لدحض حججهم الباطلة، كما قصّ القرآن الكريم علينا ذلك في أكثر من موضع قرآني، ومن ذلك –على سبيل المثال لا الحصر–: قوله—سبحانه– في سورة الأعراف: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٥٦.

مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) " [١]، وهذا ما صوره الشاعر ذلك في قوله [٢]:

ويَجِيءُ دَوْرُ الرُّسْلِ مِمَّنْ أدْرَكُوا النُّـ	ـورَ القديـمَ بطيبـةِ الأضـــواءِ
فيَمُـــرُّ (موسى) داعيـاً لإلَـهِـهِ	فيقـول فرعـون الإلـه دمائـي
أنـا مـن سلالتـه ومـن جبـروته	فجميـــعُ آلهـــة السَّـــما آبائي
ويَجِـئُ دَوْرُ السِّـحرِ والآيـات يَوْ	مَ المعجـــزات أمـام عيـنِ الرائي
تُـرْمَـى الحِبـالُ فتَلْتَـوِي وكأنَّـها	رُقْـطٌ تَهُـولُهُـم علـى الغَبْـراءِ
حتى إذا ألقى لها (موسى) العصا	غـابَـــتْ بِفَكَّـيْ حَيَّـــةٍ رقْطَـــاءِ

ثم يستطرد (كامل أمين) في هذا المضمار، الذي يكمن في انتصار الحق على الباطل، من خلال ضرب الشواهد على ذلك في أنبياء الله ورسله؛ وكأن الشاعر يريد أن يقول بلسان الحال لا بلسان المقال: أن طريق الدعوة إلى الله ليس قريب المنال، كما أنه ليس مفروشاً بالحرير، وإنما هو محاطٌ بالأشواك، لا يقطعه إلا عالي الهمة، عظيم العزيمة، محفوفٌ من بين يديه ومن خلفه بتوفيقٍ من الله وفضله، وهذا يوضح أن الباطل مهما ارتفع لابد من انخفاضه، ومهما انخفض الحق لابد من اعتلائه، وقد تمثل ذلك في معجزات الله لأنبيائه ورسله، ومن تلك المعجزات الربانية الباهرة أيضاً: ما ساقها الشاعر في ملحمته على يد سيدنا (عيسى) -عليه السلام- من إحياء الموتى، وسيره فوق الماء.. إلخ في قوله[٣]:

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١١٧- ١٢٢.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٢.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٣.

فإذا (بعيسَى) يَبْعَثُ الْمَوْتَى بإذ ... نِ الله حتَّى يُؤْمِنُوا ويَتُوبُوا

ويَسِيرُ فَوْقَ المَاءِ وهْوَ أمَامَهُمْ ... لُجٌّ تكادُ بِهَا السَّفِينُ تَغِيبُ

ويَمُدُّ راحَتَهُ فيُبْرِئُ أكْمَهاً ... أوْ أبْرَصاً وطَرِيقُهُ مَرْهُوبُ

ثم تناول الشاعر ما دار حول المسيحية من مزاعم فاسدة؛ حيث كشف النقاب عن ادعاءاتهم الباطلة في (المسيح) -عليه السلام-، ومنها: أنهم ادَّعَوْا أنه ابن الله، ومنهم من قال: بأنه إله، ومنهم من قال: بأنه وأمه إلهين من دون الله، ومنهم من قال: بأنه ثالث ثلاثة، مع أن (المسيح) -عليه السلام-، قد أقرَّ بعبوديته لله، وليس بإله ولا ابن إله، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، ومع كل ذلك فإن اعتقادهم حاد عن الصواب، وخرج إلى الغلو الذي عابه الله عليهم بقوله في سورة النساء: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) " (١).

وإذا كان هؤلاء قد ادَّعَوْا بأن (عيسى) ابن الله؛ لأنه خُلِقَ من غير أب، فإن (آدم) -عليه السلام- أولى بالبُنُوّة لله منه؛ لأنه خلق من غير أبٍ ولا أم، ومع ذلك فهو عبدٌ لله "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) " (٢).

وأما عن قولهم بأنه إله: فلو سلمنا جدلاً بأنه إله، كما ادعى هؤلاء المدَّعُون، فكيف يكون إلهاً، وابنَ إلهٍ في آنٍ واحد، تارة يقولون بأنه ابن الله، وتارة أخرى يقولون بأنه إله، فيا ترى من هو سيدنا عيسى (عليه السلام)؟

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

لقد رد القرآن الكريم عليهم بقوله، في آيتين عظيمتين من سورة المائدة: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) " (١)، وقوله: **"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)** " (٢).

وأما عن قولهم بأنه ثالث ثلاثة: فلقد دحض القرآن الكريم هذه الحجة الزائفة، ورَدَّ عليهم زعمهم الباطل بقوله من سورة المائدة: **"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)** " (٣).

وهكذا بيَّن الحق—سبحانه– أن سيدنا (عيسى) عبدٌ خلقه الله بقدرته، ونفخ فيه من روحه، وجعله وأمه آية للعالمين، وأن نبي الله (عيسى)، لم يطلب منهم أن يجعلوه إلهاً، ولا ابن إله، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) " (٤).

لقد تتبع الشاعر هذا القصص القرآني العجيب، من خلال تصويره لمواقف الأنبياء مع أقوامهم، بأسلوبه النابع من مقدرته الفنية الرائعة، وسعة اطلاعه، فقال(٥):

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٥) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٣ – ٦٤.

بَـدَأَ المَسِيحِيّـونَ يَخْتَلِفُـونَ فِـي ... عِيسَـى فكانَـتْ ضَـجَّةً وجِـدَالا

مِـنْ قَـائِـلٍ قـال المَسِيحَ ابْنَ الإلَـ ... ـهِ وقَـائِـلٍ. قـال. الإلَـه وقـالا

مَنْ لَيْـسَ مِنْ هَذا ولا مِنْ ذاكَ إنّ ... نَ الله (ثـالُـوثٌ). وقـال تعالَـى

بِكِتَـابِهِ مَا يَعْجَـزُ الشُّعَرَاءُ عَـنْ ... أنْ يُـدْرِكُـوهُ بَـلاغةً وجَمَـــالا

هلْ قـال عِيسَـى إنَّـهُ كانَ الإلَـ ... ـهَ لِتَعْبُـدُوهُ؟ ومَنْ رَوَى مَا قالا؟

وعَلامَ تَخْتَـلِفُـون فِي التَّفْسِيرِ إنْ ... لَـمْ يَخْتَـلِفْ أصْحَـابُهُ أقْـوَالا؟

إنْ قِيلَ (عِيسَى) بْن الإلَهِ أو الإلَـ ... ـهُ فقَـدْ تأخَّـرَ عَقْلُكُـمْ أجْيَـالا

ومن ثم يتبين أن الشاعر اعتمد في معالجته لهذه القضية، على الحدث القرآني الذي أبطل حُجَجِهم الواهية، من خلال المنطق الصائب، والأدلة الراجحة، لإقرار التوحيد لله – سبحانه وتعالى–، فقال(١):

وإذَنْ يَكُـونُ المَنْطِقُ المَعْقُولُ إنّ ... نَّ اللهَ. قُـلْ سُبْحَانَـه وتعالَـى

صَـمَدٌ وفَـرْدٌ لَـمْ يَـلِدْ أحداً ولَمْ ... يُـولَدْ ولَـمْ يُخْلَقْ لَـه أمثالا

ثم يواصل الشاعر سيره في تتبع أدوار الأنبياء مع أقوامهم، في تبليغ دعوتهم إلى الله، فيُعَرّج على حياة العرب في الجاهلية، وما فيها من فوضى واضطراب، بعد أن حلقت في سماء مكة والجزيرة العربية غيوم الظلام، وانتشر فيها الظلم بين أهلها، من عبادة للأصنام، ومن وأد للبنات، وسفك للدماء.. إلخ، كلُّ ذلك وغيره كان نذيراً باقتراب النور، والخلاص من براثن الشرك والظلم عن طريق البعثة النبوية المطهرة، فيقول(٢):

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦.

ما زالَت الأجْيَـالُ تَعْبُـرُ جِسْـرَها ... والنَّـاسُ تَظْلِـمُ والدِّمَـاءُ تَسِـيلُ

والقتلُ قَتْلُ النفْسِ لمْ يُوقَفْ على ... جَسَـدٍ فكَـمْ بالضيْـم خَرَّ قتيلُ

والبَعْثُ بَعْـثُ النَّفْسِ مِـنْ عَثَراتِها ... إنَّ الحيـاةَ مُـــرُوءَةٌ وجَمِـــيلُ

هذا "مُحَمَّـدٌ بـــنُ عبد الله" يَعْـ ... ـبُـدُ فـي "حِـراءِ" ودُونَـهُ جِبْـرِيلُ

ويتعرض الشاعر في هذا الإطار لموقف قريش من الدعوة المحمدية، وما لقيه (النبي) – صلى الله عليه وسلم– في سبيل تبليغ دعوته؛ حيث يشير إلى أن نشأة (النبي) كانت في مجتمع مليءٍ بالأحقاد، مجتمع يحفه الظلام، مجتمعٌ يعيش في ضلالةٍ عمياء، وكان من نتيجة ذلك: أن النبي عندما جهر بدعوته، وقفت قريش حائلاً من وصول دعوته، فطُرِد من بيته ووطنه، وتحمَّل وأصحابه العنت والظلم والإيذاء؛ من أجل أن يُبَدِّل الله ذلهم عزاً، وظلامَ وجودِهِم نورا، فصور تلك المعاني بقوله(١):

والبَيْعَةُ الأُولَى وحِقْدُ قُرَيْـشِ الطَّـ ... ـاغِي ومـا يُوحِي بـه التنزيـلُ

وقَفَـتْ قريـشٌ حائلاً مِن دونـه ... والله يأبَـــى أنَّ ذاك يَحُـــولُ

فالحَقُّ حَـقُّ الله لا يَـرْقَـــى لـه ... زَيْــغٌ ولا يَــرْقَـى لـه التضليــلُ

كما تناول (كامل أمين) في ملحمته (السموات السبع) الفتنة الكبرى، والتي تعرف كذلك بالفتنة الأولى، التي تعرضت لها الدولة الإسلامية في خلافة (عثمان بن عفان)، والتي أودت بحياته ومقتله في سنة (خمسٍ وثلاثين) من هجرة (المصطفى) –صلى الله عليه وسلم–، عندما انفجرت ينابيع الفتنة، ومُزِّقَت وحدةُ المسلمين، حتى خلافة (علي بن أبي طالب)، ممَّا أدى إلى خروج (معاوية بن أبي سفيان) أمير الشام، على (علي بن أبي طالب)، ومنازعته في الحكم؛ بسبب التهاون في قتل (عثمان بن عفان)، وتَرْك هؤلاء الذين قتلوه، مما تسبب في ظهور

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦.

طائفتين، وهما: (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام (علي)؛ بسبب قبوله التحكيم في المعركة التي دارت رحاها بينه وبين (معاوية)، و (الشيعة) الذين خرجوا لمناصرة الإمام (علي)، والوقوف معه ضد (معاوية)، فلما استقر الأمر في هذه المعركة لـ (علي بن أبي طالب)، وأوشك أن ينتصر على معاوية وجيشه، رفع (معاوية) وجيشه المصاحف على أسِنَّةِ الرماح؛ لتحكيم كتاب الله، مما دعا أحد أنصار وفرسان (علي بن أبي طالب) وهو (الأشْتَر النخعي) عن الإحجام في استمراره لقتال (معاوية)، فإذا بضربات الداهية، صاحب العقل الفائق المستنير، والمقدرة الفذة في التخطيط للحروب (عمرو بن العاص)، وهو من أنصار (معاوية)، تأتي إلى (علي) وجيشه من خلفهم، وهنا يصور الشاعر ذلك بقوله(١):

لمَّا استقـرَّ الدِّيـنُ هبَّتْ فِتنـةٌ ... أخــذَتْ بهـا أقصـى البلاد ذُحُولُ

كَبُرَتْ على القرآن صرعةُ مُسلمٍ ... (عثمــانُ) فيـها المُؤْمِنُ المقتـولُ

والأشْـتَرُ النَّخْعِيُّ والجيشـان جَيْ ... ـشُ الشَّــامِ يَعْـلُو العــراقُ تَحُـولُ

إذاً اسْتَـبَاحَ (عَلِيٌّ) الْمَيْـدانَ وَارْ ... تَـوَتِ الرِّمَــاحُ وَحُكِّــمَ التَّنْـزِيــلُ

قـالوا كتــاب الله يَحْكُــمُ بينـنا ... ولْيَسْـتَقِـرَّ السَّيْـفُ والتَّقْتِيـــــلُ

ضرباتُ (عمروٍ) مِنْ وراءِ خطوطِهِ ... ظُلْمٌ ولكِــنْ مَنْطِــقٌ مَعْقُــولُ

وهكذا ضرب الشاعر أروع الأمثلة، من خلال استشهاداته الرائعة لبعض الأنبياء والرسل، ومن سار على دربهم، واستن بسنتهم، وانتهج نهجهم، في إعلاء راية الحق خفاقة في عنان السماء، وفي التصدي للباطل الذي استشري في كل زمان ومكان، فكان تصويره لهذه المواقف تصويراً مبدعاً، في الوقت الذي حافظ فيه محافظة تامة، على الألفاظ، والمعاني، التي ساقها في الحوار بين الأنبياء، وأقوامهم.

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٨.

المبحث الثالث

موقف صلاح الدين الأيوبي من الحروب الصليبية

يُطَوِّف الشاعر/ كامل أمين بنا في آفاق ملحمته (السموات السبع) من عصر إلى عصر، ومن زمن إلى زمن؛ لكي يُنَمِّي عقولنا، ويأخذ بأفئدتنا؛ لمعالجة الخلل الذي أصابنا في زماننا؛ حتى نتعلم من هذه القضايا التي تعرضنا لها في المباحث السابقة، وما يليها، وقد ساقها لنا بأسلوب قويم، من خلال نظمه الشعري البديع، كقضية خلق الإنسان، وخروج آدم وزوجه من الجنة، وكذلك البطولات في زمن الصحابة والتابعين، ومن سار على دربهم.

ثم يسير الشاعر بنا في هذا مضمار انتصار الحق على الباطل، ويجنح بخياله الفني، وقريحته الشعرية الفذة؛ لكي يلقي بظلاله على شجاعة القائد/ صلاح الدين الأيوبي، الذي لم يقبل بروح اليأس والهزيمة في الحروب الصليبية(١)، فوقف بجنده أمام الباطل كالجبال الرواسي، ثم بدأ بِلَمِّ شَمْلِ المسلمين، وتحقيقِ وحدتهم؛ حتى يتمكن من مواجهة الصليبيين، ومن ثم " توجه إلى

(١) يقصد بمصطلح (الحروب الصليبية): تلك الحروب التي شنتها أوروبا ضد الإسلام والمسلمين، خاصة في بلاد الشام، والأناضول، ومصر، وتونس؛ لاستئصال شأفة الإسلام، والمسلمين، والقضاء عليهم، لكن على الرغم من ذيوعه وانتشاره، إلا أن بعض الغموض قد اكتنفه؛ نتيجة اختلاف وجهات النظر لدى المؤرخين مع بعضهم البعض، ومن ثم تعددت الآراء حول هذا المصطلح:

فذهب فريق إلى أن الحروب الصليبية: "حرب دينية خالصة، وترمي إلى استرداد الأماكن المقدسة، عن طريق مباشر أو غير مباشر"، ينظر: (الحروب الصليبية الأولى، د/ حسن حبشي، ص: ٧، ط: الثانية، دار الفكر العربي، مصر ١٩٥٨م)، وهذا الرأي قد اهتم بالدوافع الدينية، وأهمل غيرها من الدوافع التي اتفق معظم المؤرخين على توافرها في الحروب الصليبية، كالدوافع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

بينما ذهب فريق آخر إلى أن الحروب الصليبية: فصل متوسط بين فصول تلك القصة الطويلة المتمثلة في (قصة التفاعل بين الشرق والغرب)، والتي تبتدئ بحروب طروادة، وفارس في الأزمنة الغابرة، وتنتهي بالتوسع الاستعماري الأوروبي الغاشم في عصرنا الحديث، ينظر: (تاريخ العرب، د/ فيليب خوري حتي، د/ إدوارد جورجي، د/ جبرائيل جبور، ص: ٧٢٣، ط: التاسعة، دار غندور، بيروت، توزيع: دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٩٤م).

دمشق؛ حيث ترك (نورُ الدين)(١) وَرَاءَهُ في الحُكم طفلاً، وهو (الملك الصالح إسماعيل)، مما أغرى كبار أمراء والده، في السيطرة على شئون الدولة، وأراد كلٌ منهم تنصيب نفسه والياً عليه، فقضى على هذه الصراعات؛ إيماناً منه بأحقيته في تربية (الملك الصالح)، رعاية لعهد والده " (٢).

لقد صور الشاعر في تفصيل شامل، هذه البطولة الفَذَّة للبطل/صلاح الدين الأيوبي في قيادة المعارك المستعرة، التي استمرت بين الشرق المسلم، والغرب المسيحي فترة طويلة من الزمن قائلاً(٣):

هـذا صلاحُ الدِّيـنِ أقْبَـلَ يَـوْمُـهُ ... بمشاعـلِ التَّـاريـخِ مِنْ فَلَواتِـهِ

لَمَّـا رأى أنَّ العـروبـــة مُزِّقَـتْ ... فـي مُلْكِ (نُورِ الدِّينِ) بَعْد وفاتِهِ

ما بَيْـن طِفْـلٍ يُسْتَغَـلُّ وحاكِـمٍ ... تَخَـذَ الإمـارةَ مُنْـتَدَى شهواتِـهِ

وبعد أن حقق (صلاح الدين الأيوبي) الوحدة المنشودة، بدأ يُفَكِّر في مواجهة الصليبيين، فأخذ يتحين الفرصة لمنازلتهم، إلى أنْ تحقق له ما أراد، حينما غَدَرَ (أرناط)(٤) بالمسلمين، وهجم على قافلةٍ عظيمةٍ لهم، فأخذها، وأسَرَ عدداً كبيراً من المسلمين فيها، فأرسل

(١) نور الدين كان صاحب الشام، وكان قوياً استطاع أن يقاوم الصليبين بالإمارات التي كانت خاضعة لحكمه، وبعد وفاته استقل كل أمير بإمارته، وكان ابنه صغيراً، فخاف صلاح الدين من طمع الصليبين في الإسلام، وحارب هذه الإمارات حتى يجمع العرب تحت رايته، ويستطيع أن يرد الصليبين ويطردهم (ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، هامش ص: ٧١).

(٢) العماد الأصفهاني حياته وعصره، د/ حسين عاصي، ص: ٩٤– ٩٥، ط: دار الكتب العلمية– الطبعة: الأولى، بيروت– لبنان ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م، بتصرف.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧١.

(٤) أرناط: هو رجنولد صاحب قلعة الكرك، وكانت شوكة في جانب المسلمين يَشُن منها غاراته على قوافلهم، وكانت شرارة الحرب التي ينتظرها صلاح الدين بعد أن جمع شمل العرب، وأصبح قادراً على مواجهتهم بعد أن نقض (أرناط) عهد الهدنة التي كانت بينه وبين المسلمين، فأغار على قافلة للحجاج، كانت قاصدة إلى بيت الله الحرام، ونهبها وأسَرَ أختاً لصلاح الدين، فأقسم صلاح الدين أن يؤدبه ويقتله، وقد بَرَّ بقسمه (ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، هامش ص: ٧٢).

إليه (صلاح الدين) بِذَمِّ فعلته، وطلب منه أن يَرُدَّ ما نهبه من أموال القافلة، وأن يطلق الأسرى، فاعترض على كلامه، ولم يُلْقِ له بالا.

فوجدها (صلاح الدين) فرصة سانحة؛ لنقض الهدنة التي كان قد عقدها مع الصليبيين، ومن ثم حشَدَ جُنْدَه، وأصَرَّ على طَرْدِ الصليبيين، وإرجاع الحق لأصحابه، وهذا ما عبَّر عنه الشاعر بقوله(١):

جَمَعَ العُرُوبَةَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ	فتَجَمَّعَ الإسْلامُ بَعْدَ شَتَاتِهِ
حَشَدَ العُروبةَ فالتَقَتْ عَزَماتُها	لِتُنَازِلَ الأعداءَ في عَزَماتِهِ
في نَهْبِ قافلةٍ لهُ كانَتْ بِهَا	أُخْتٌ تُرِيدُ الحَجَّ مِنْ أخَوَاتِهِ
حتَّى تحرَّكَت الجُيوشُ لِطَحْنِ (رَجْ	نُولدٍ)(٢) ودَكِّ جميعِ تحصيناتِهِ

لقد سار (صلاح الدين) إلى الصليبيين بجيشِهِ الجرار، فسَحَقَ جيوشهم العتيدة بعد عُبُورِه لنهر الأردن، وأصابهم بالذعر، والهلع من شدة الضربات، التي كانوا يَئِنُّون، ويصرخون مِن وَقْعِ أَلَمِها عليهم، مما جعلهم يهربون إلى (طبرية)(٣) ، وكان ذلك بمثابة قمة انتصاراته عليهم في معركة (حِطِّين)، ومع ذلك لم يتركهم (الأيوبي)، بل تابعهم ومنع عنهم الماء، وتركهم يموتون عطشاً، ثم أطلق عليهم سهامه، ورماحه؛ حتى جعلهم يتطايرون أمامه، كالرمال التي تتطاير من شدة

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٢.

(٢) رجنولد كما يسميه الإفرنج: هو أرناط التي سبقت الإشارة إليه قبل ذلك (ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، هامش ص: ٧٢).

(٣) لما فزع الصليبيون من صلاح الدين وانهزموا، هربوا إلى قلعة طبرية، فلاحقهم صلاح الدين، وأشعل فيها النار، وسحقهم في معركة حطين التاريخية المشهورة (ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، هامش ص: ٧٣).

الإعصار، ولذلك قيل: "مَنْ شاهد القتلَى قال: ما هناك أسِير، ومَنْ عايَن الأسرى قال: ما هناك قتِيل" (١)، وفي هذا يقول (كامل أمين)(٢):

واجْتَـازَ نَهْـرَ الأرْدُنِ الجَيْـشُ العَـرَمْ ... ـرَمُ فِـي قُـوَى فُرْسَانِـهِ ومُشَاتِـهِ

حتَّـى اسْتَقَـرَّ بِـــهِ علَى (طَبَـرِيَّـةٍ) ... وانْقَضَّ وَهْـيَ تَئِـنُّ مِـن ضربـاتِهِ

حَرَقَ السُّـهُولَ على العـدوِّ وهكـذا ... أخَـذَتْ عليـه النـارُ كـلَّ جِهَاتِـهِ

ومَضَى إلى (حِطِّينَ) يَسْحَقُ كُلَّ مَا اعْـ ... ـتَـرَضَ الطَّرِيـقَ بِعَزْمِـهِ وثَبَاتِـهِ

وعلَى رُبَـا (حِطِّيـنَ) خَطَّ المَجْـدُ مَوْ ... قِعَـةً رَوَاهـا الدَّهْرُ فِي صَفَحَاتِهِ

مَنَـعَ الميـاهَ عـن العَدُوِّ وأضْـرَمَ النّـ ... ـيـرَانَ فيـهِ وغَالَـهُ بِرُمَاتِـــهِ

ومن الملاحظ أن (كامل أمين)، حاول تنبيه المسلمين، وإثارة حميتهم، وتقوية عزيمتهم؛ للدفاع عن مقدساتهم عن طريق ذِكْرِ انتصارات (الأيوبي) الساحقة على الصليبيين، وبعد أن انتهى (صلاح الدين) وجنوده من معركة (حطين)، التي انتصروا فيها على الصليبيين، وانتقموا منهم شَرَّ انتقام، كانت الجبهة الصليبية في شدة ضعفها؛ ومن ثم تمكن (صلاح الدين) من فتح العديد من القلاع والحصون، فاتجه بعد تمكينه من (طبرية، وحطين) إلى (بيت المقدس) الذي كان محتلاً من أوغاد الصليبيين، وأخذ في تعذيبهم، وحَصْدِ أرواحِهم، وجعل يتنقل فيما بينهم، ما بين الأسْر والتقتيل، حتى أذعنوا له، وسَلَّمُوا لشروطه، ولكنه مع ذلك تعامل مع ضعفائهم بروحه الإسلامية السمحاء، فكان رحيماً بكل من بكى، وشكى إليه حاله، فأعطى إلى فقرائهم الأموال، دون أن يخص واحداً من المسلمين عليهم، حتى أنه أطلق سراحَ الأزواج لأزواجهم، والآباء لأبنائهم، وبذلك تمكن من السيطرة على بيت المقدس، وتطهيره من رِجْسِهم، فجاء

(١) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبوشامة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ص: ١٨٣، ج: الثالث، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٣.

تصوير الشاعر لذلك تصويراً جميلاً، مبيناً أثر هذه الروح الإسلامية في رحمتها، وعدالتها، حتى مع غير المسلمين(١):

وتَوَجَّــه السُّلْطــانُ بعدهمـا لِبَيْـ ـتِ المقـدسِ المُحْتَـلِّ كالعنقـاءِ
حشــدوا بــه سِتّيــن ألف مُقَاتِـلٍ ما بيــن فــارِسِ غَمْـرَةٍ وفِدَائِــي
ومضى صلاحُ الدينِ يَحْصُدُهُمْ كَأَوْ رَاقِ الخَـرِيــفِ بِرِيحِـهِ الهَوْجَاءِ
لـمْ يَسْتَغِل الفَتْـحَ كالإفرِنجِ في التَّـ ـقْتِــيلِ والتخريــبِ والإجــلاءِ
بـل كـان يَـرْحَـم كلَّ باكيةٍ وشا كِيَــــةٍ ويُعْطِــي المالَ للفقـراءِ
كالنهر يسقي لا يَخُصُّ بِمَائِهِ الْـ ـإنسـانَ دون الحَيَّــةِ الرَّقْـطَــاءِ
قـد أطلَقَ الأزواجَ للزوجــاتِ والْـ ـآبــــاءَ أطلقهــم إلى الأبــناءِ

ويستمر (صلاح الدين) في مواصلة انتصاراته ضد الصليبيين في كل مكان، فما يكاد ينتهي من انتصاره في معركة، إلا ويدخل على الأخرى، فينقَضّ على مَن فيها مِن خصومه؛ حتى يقضي عليهم، ويكسر شأفتهم، ومن هذه الصولات التي التقى فيها (صلاح الدين الأيوبي) بخصومه: (معركة اللاذقية) التي كان أصحابها في أتم استعدادهم مع حلفائهم؛ لمجابهته، والانتصار عليه، ومن ثم رَتَّبَ (الأيوبي) عسكره، وسار إليهم حتى قارب حصونهم، ثم دارت رحى المعركة بين الطرفين، وانقض عليهم (صلاح الدين)، فأخذ يشدد عليهم في التضييق، والتقتيل، من خلال ضربه لحصن (اللاذقية) تارة، ثم حصن (جُبْلَة) تارة أخرى؛ حتى أذعنوا إليه أذلاء خاضعين، وفي هذا يقول(٢):

ومضى (صلاح الدين) نحو (اللاذقِيَّـ ـةِ) وهْيَ تُمْعِن في القتال وتَضْرِبُ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٤.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٦.

ما زال يَضْـرِبُ حِصْنَـها طـوراً ويَضْـ ـرِبُ حِصْـنَ (جُبْـلَةَ) تـارةً ويُخَرّبُ

وبعد هذه الانتصارات المتتالية من (صلاح الدين) على خصومه الصليبيين، يصور الشاعر فزع الغرب الأوروبي؛ بسبب كابوس الهزائم التي يتلقونها واحدة تلو الأخرى، وبسبب فشلهم أيضاً في تحقيق أي هدف من أهداف حملاتهم الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، ومن ثم توالت أصوات الاستغاثة بملوك أوروبا، الذين أرسلوا حملة ثالثة؛ للقضاء على الإسلام والمسلمين، وعلى رأسها: (فردريك الأول) امبراطور ألمانيا، و (ريتشارد) الإنجليزي، و (فيلب أوغسطس) الفرنسي.

أما امبراطور ألمانيا (فردريك): فقد مات غرقاً وهو في طريقه، عندما عبَرَ بجواده أحد الأنهار، فَجَرَفه الموجُ داخل المياه، وتشتتت حملته، وبذلك تصبح مشاركة (الألمان) في هذه الحملة مشاركة رمزية، وأما الآخران (الإنجليزي، والفرنسي) فقد وصلا إلى آسيا، وضربا حصاراً مُحْكَماً على (عكَّا)، لكن جيش المسلمين تأهب لهم، وتصدى لقتالهم، في معركة حامية الوطيس، وهذا ما صوَّره (كامل أمين) في قوله(١):

رِيْعَـتْ لهـذا النَّصْـرِ أوربَّـا كما لو كـان كابوسـاً مـن الأحـلامِ

فأعَـدَّتِ الإفـرِنْـجُ ثالث حَمْـلَةٍ (برنـادُ) حَرَّضَها علـى الإسلامِ

ملكـان كـل منهما يبغـي الرّئا سَةَ فـي قطيعٍ سِيقَ كالأنعامِ

بَـدَأَ القتـالُ أمام (عَكَّا) عندما بـدأ الشِّتاءُ بِثلجِهِ يَكْسُو الرُّبَى

ضربوا حوالَيْها الحِصارَ فَهَبَّ جَيْـ ـشُ المسلمين لِصَـدِّهِمْ وتأهَّبـا

إلا أن الصليبيين قد أصابهم اليأس، وخارت عزائمهم؛ بسبب ما وجدوه من ثبات المسلمين على موقفهم، فلجأوا إلى الصلح الذي نصَّ على "أن يستقرّ الصليبيون في الشريط

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٧.

الساحلي الممتد من (صور) إلى (يافا)، وأن يسمح لهم بزيارة بيت المقدس، عُزَّلاً من السلاح (١)، وفي ذلك يقول (كامل أمين)(٢):

حقّـاً لقَـدْ كانَـتْ لَهُمْ بعضُ السَّوَا حِـلِ فيه تَحْمِي الغَرْبَ حين تَجَمَّعا

لكـنَّ هــذا الصُلْحَ مَهَّــد بعــد ذَ لِكَ للعُرُوبــةِ حيــن هَبَّــتْ أجْمَعــا

وهكذا مضى شاعرنا/ كامل أمين، يسجل بطولات (صلاح الدين الأيوبي) مع أعدائه الصليبيين، بعد أن جمع كلمة المسلمين من النيل إلى الفرات تحت راية واحدة، فقاتل الصليبيين، وَدَكَّ عليهم قلاعهم، وحصونهم في حطين، وعكا، والرّها، وغيرها من قلاع الصهاينة، ثم ربط الشاعر بين ماضي الأمة، وحاضرها، حين أشاد بالرئيس/ جمال عبد الناصر، الذي قام بتجديد عهد (صلاح الدين الأيوبي) في الدعوة إلى الوحدة، والتصدي للأعداء، مُدْرِكاً لقيمة الوحدة التي رأى أن فيها الخير الوفير، والخلاص للبلاد والعباد، ولم يكن يدعو إلى وحدة محدودة، تخُصُّ القُطْر الذي يعيش فيه فقط، بل كان واسع الأفق؛ حيث دعا إلى وحدة الصف العربي، والإسلامي كله، في زمن تَفَرَّق فيه العرب، والمسلمون إلى أحزاب متعددة، يضرب بعضهم رقاب بعض، بل ويستعينون بالأعداء على أشقائهم من المسلمين في الداخل والخارج، وهذا ما صوره الشاعر/ كامل أمين، من خلال سَوْقِه لهذا النموذج الراقي، المتمثل في شخص الرئيس الأسبق/ جمال عبد الناصر، والذي ارتفع صوته وسط هذا الظلام، منادياً بالوحدة، داعياً إلى لَمّ شَمْلِ المسلمين، على غرار ما حدث في زمن (صلاح الدين)؛ ليقفوا صفاً واحداً في مواجهة ما يحيق بالعرب والمسلمين من أخطار، فقال(٣):

(١) ينظر: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، علي عبد الحليم محمود، ص: ١٦٩ – ١٨٠، ط: الأولى، دار التوزيع والنشر الإسلامية- مصر ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م – بتصرف.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨٠.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨١.

هذِي الرِّسَالةُ مِنْ صَلاحِ الدِّينِ مَا ... زالَــتْ تَمُــدُّ لنا الشُّعاعَ هادِيَـا

(بِجَمَالِ عبد الناصـر) انطلَقَتْ فَعَا ... دَ بِــهِ (صلاحُ الدينِ) فينـا ثانيا

لن تستطيعَ قُـوَى الصليبيين أنْ ... تُثْنِيهِ عنْ أنْ يَسْتَعِيـدَ الماضِيَـا

إنَّ الخرائطَ بيــن أيـدِينـا تُـرِيـ ... ـنَا كيــف ظَلَّ الغَـرْبُ فينا باقِيَا

فَلْتَجْمَــع العربُ الصُّفُوفَ وراءَهُ ... وَلْيَـرْتَفِـعْ عَلَـمُ العُرُوبــةِ عاليا

أرْقَى الشُّعُوبِ هي التي إنْ رَدَّدَتْ ... تاريخَهَا مَهَـرَتْ عليــهِ الغاليــا

واسْتَلْهَمَتْ أحـداثَ ماضِيها لِتَأ ... خُــذَ مِنْـهُ عِبْرَتَهَا وتصعد ثانيا

ويخلص الباحث مما سبق أن (كامل أمين) كان مهموماً بأمته الإسلامية، التي تم اغتصاب أرضها، وانتهاك حُرُماتها، فجاء شعره في ملحمته (السموات السبع) مواكباً لهذه الأحداث، ومن الملاحظ أن الشاعر حاول إثارة حمية المسلمين، عن طريق هذه البطولات، التي انتصر فيها (صلاح الدين) في كل مكان، بل وفي كل بلدةٍ إسلامية تم تحريرها على يد هذا البطل، فكان لِذِكْرِه لهذه البطولات الأثر البالغ، والمنزلة العالية، في إلهاب مشاعر المسلمين؛ للدفاع عن مقدساتهم، وأرضهم، ومن ثم جاء شعره متواصلاً، متدفقاً، مفعماً بالإثارة، والحيوية، صادراً عن نَفْسٍ ثائرةٍ، ممتلئة بالغضب، والبُغْض على الصليبيين، ومَنْ يُؤَازرهم، ويُساندهم من المسلمين.

المبحث الرابع

شجاعة الظاهر بيبرس في محاربة التتار

لقد وقف الشاعر في هذا المبحث من ملحمته (السموات السبع) كسابقه، يصور الملاحم البطولية لأبطال المسلمين، كلٌ في عصره الذي نشأ فيه، ويعبر عن بسالتهم في ميادين القتال، وهم يدافعون عن أرضهم، وعرضهم، ومقدساتهم الدينية، مفتخراً بشجاعتهم الفائقة، من خلال منظوماته الحماسية، التي تتميز بطول أنفاسها، والتهاب أحداثها، وامتلاء صورها، فبرز قصد الشاعر من رفع صوته في ملحمته؛ من أجل معالجة المسلمين لواقعهم الأليم، فنادى بالصمود والتحدي، وحث على الجهاد والتصدي، وتغنى بالشجاعة والشجعان، في النصر على التتار.

وقد أورد الشاعر في ذلك نموذجاً فريداً في البطولة، والأخذ بالثأر، بعد ما شَرَّدَ الغزو المغولي أهل هذا النموذج، الذي اختاره للحديث عنه، وعشيرته، والذي كان مصيره الاسترقاق بعيداً عن أهله وموطنه، لكن حكمة الله تأتي بتغيير حاله من رقيقٍ مملوك، إلى قائدٍ فذٍ من قواد المسلمين العظام؛ ليجد نفسه محققاً لأمجادٍ سياسية، وعسكرية، من خلال مناصبه الرفيعة التي ارتقى لها، إنه (الظاهر بيبرس)، الذي أصبح رمزاً مضيئاً في تاريخ الكفاح العربي والإسلامي ضد الغزاة والمستعمرين.

لقد بدأ الشاعر بالحديث عن هذا القائد (بيبرس)، حينما تَعَرَّضَ للسَّبْيِ، والرِّق، وتم بيعه في أسواق الشام الخاصة بهم، فقد اشتراه الأمير/علاء الدين أيدكين البندقداري، بعدما رأى فيه علامات الفطنة، والنجابة، فأَحَبَّه وأحاطه، وكان له أباً مكان أبيه، ونزل (بيبرس) من هذا القلب الرحيم به، منزلة البُنُوَّةِ الحَقَّة، يجد لديه من الإعزاز والإكرام، ومن العناية والرعاية، ما يُخَفِّفُ عنه آلامه النفسية، من فقد أبويه، وأهله، وموطنه، وفي هذا يقول (كامل أمين) (١):

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨٤.

سُوقُ الرَّقِيقِ(١) هنا دمشقُ وكُلُّ دَلَّ ... لَالٍ يُقَـدِّمُ فيــه حُسْـنا

ووَرَاءَ بعضِ المشترين يَسِيرُ مَمْ ... ـلُوكٌ يُحَدِّثُهُ الأميرُ لِيَطْمَئِنَّا

أيدكين: ولدي.

بيبرس: أنا مولاي عبدك.

أيدكين: بل كإبني.

بيبرس: كيـف يَغْدُو العَبْـدُ يا مولاي ابنـا

أثْمَانُنا في السُّوقِ يا مولاي والْ ... ـأبناءُ لَمْ يَكُ صِنْفُها في القَصْرِ مِنَّا

وما أن علم به وزير السلطان (الملك الصالح)، حتى أبلغ السلطانَ به، فأبدى السلطان رغبته في شرائه وامتلاكه؛ بعدما سمع من وزيره، ومن المحيطين به، عن بُنْيَانِهِ القوي، وجهارةِ صوته، ووَصْفِهِ الذي يدل على شجاعته، وبسالته في الإقدام على الأعداء أثناء الحروب، وخاصة بعدما حاوره، ورأى فيه من الصفاتِ الخُلُقية السامية، كالدهاء، والوفاء، ما يندر وجودهما في بعض الناس، وبخاصة إذا كان عبداً مملوكا، كلُّ هذه الصفات كانت داعيةً لاختياره من السلطان؛ ليكون ضمن مماليكه المقربين منه، وبذلك يكون قد فُتِحَ أمام (بيبرس) بابُ الخدمة لدى قادة الدولة وكُبَرَائِها، وفي ذلك يقول الشاعر معبراً عن ذلك(٢):

وهُنَاكَ والسُّلْطـانُ فِـي دِيـوَانِـهِ ... يـأتِـي الوزيــرُ بآخِــرِ الأخْبَــارِ

الوزير: مَوْلايَ أقْبَلَ أيْدَكِينُ بأشْقَرٍ ... كاللَّيْـثِ رَحْـبِ الصَّدْرِ طُولِ الصَّارِي

النـاسُ قالـوا عنه كان مصــارعاً ... حَـذْقَ الصِّـراعِ على يَــدَيْ جَبَّــارِ

(١) في سوق الرقيق بالشام حيث كان يُباع الظاهر بيبرس مملوكا، واشتراه أيدكين البندقداري، ثم اشتراه بعد ذلك السلطان الصالح أيوب، وجعله ضمن مماليكه، وأسكنه في القلعة مع أيبك التركماني (ملحمة السموات السبع، كامل أمين، هامش ص: ٨٤).

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨٤.

السلطـان: أحْضِـرْهُ حتى أشْتَرِيه .....

لقد صَدَّر الشاعر حديثه في هذا المبحث، ببعض البطولات التي سَطَّرَها التاريخ، فضرب المثل بقائد صليبي، وهو (لويس التاسع) ملك فرنسا، عن طريق رسمه للوحة فنية رائعة لهزيمة (لويس التاسع) على يد أبناء الشرق العربي، الذين أسَرُوه، وسجنوه في دار (ابن لقمان)، حتى جاءت زوجه بالفدية، فعاد بعدها ذليلاً، مطأطئ الرأس، وذلك في أعقاب ما قام به الصليبيون في زحفهم لغزو المدن المصرية، حتى وصلوا إلى مدينة دمياط، "فنزلوا في مكان يقع إلى القرب من موقع الجيش المصري، ثم وقعت بعض المناوشات بين طلائع الجيشين، دون أن يقع اصطدام على نطاق واسع" (١)، لكن (لويس التاسع) لم يستغل فرصة دخوله دمياط، دون مقاومة جادة من الجيش المصري؛ بسبب الحالة السيئة الناجمة عن خلاف السلطان آنذاك مع قواده، فقد أوقف ملك فرنسا زحفه؛ بسبب انشغاله بتأخر عدد كبير من سفنه، مما كان سبباً في أخذ العبرة للمصريين مما حدث لهم، فتعلموا الدرس جيداً، وأخذوا في مقاومتهم مقاومة جادة، وهزموهم هزيمة ساحقة، وبذلك فشلت حملتهم الصليبية فشلاً ذريعاً، وسقط قائدهم أسيراً في أيدي المصريين، وفي ذلك يقول(٢):

أمَّـا (لُويـسُ) فإنّـهُ قَـدْ فَـرَّ مُنْ ... ـهَزِمـاً وَحَوْلَيْـهِ الرُّؤُوسُ تَطِيـحُ

طَلَبُـوا الأمـانَ فَأَمَّنُـوهُمْ بَعْـدَ ما ... دُفِـنَ القَتِيـلُ وعُـولِجَ المَجْرُوحُ

آوَى (لُويسُ) لِبَيْتِ شَيْخٍ اسْمُهُ (ابْـ ... ـنُ الصَّالِحِيّ) كأنَّـهُ مَذبُـوحُ

طافُـوا بِـهِ الأحْيَاءَ مَحْمُولاً على ... جَمَـلٍ وحَوْلَيْـهِ الجُمُـوعُ تَصِيـحُ

ورَمَوْهُ في دار (ابْنِ لُقْمانٍ) سَجِيـ ... ـناً فـي السَّلاسِـلِ يَلْتَقِيهِ صَبِيحُ

(١) موسوعة تاريخ مصر، أحمد حسين، ج: الثاني، ص: 665، ط: دار الشعب، القاهرة.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١١٠.

وفي ذلك يعطي الشاعر إشارة واضحة إلى قيمة الوحدة بين المسلمين، تلك التي فيها خلاص البلاد والعباد من بطش هؤلاء الغزاة، فجعل من الشعر سلاحاً، يتم به الظفر، ويتحقق به النصر؛ لما له من أثرٍ بارزٍ في الأحداث العالمية بوجه عام، وفي أحداث الحروب بوجه خاص، فتناول هذا المعنى في شعره، داعياً إلى مقاومة الأعداء، مؤكداً أن الفتح ليس عسيراً، داعياً إلى وحدة الصف، وعدم الفرقة والتنازع؛ لأن ذلك سيشفي غليل المسلمين، ويروي ظمأهم، ومن ثم تهيأ المسلمون، وأخذوا يعُدُّون العُدَّة لمجابهة هؤلاء الغزاة الذين أتوا بقيادة (لويس التاسع) ملك فرنسا إلى الشرق، في أعداد ضخمة مُحَمَّلة بالبغض للإسلام وأهله، وأشعلوا النار في دمياط، بعد تَرْكِ المسلمين لها، فنزل هذا الخبر كالصاعقة على قلب (الملك الصالح أيوب)، وأحسَّ بمزيج من المرارة والألم، ثم دارت رَحَى الحرب التي انتهت بالصليبيين، ما بين قتيلٍ، وجريح، وفي ذلك يصور (كامل أمين) هذا المشهد قائلاً[(١)]:

وتوالت الأيام يوماً بعد يَوْ	مٍ والحوادثُ تلتقِي بالوادِي
قال الرَّسُولُ رَسَتْ على دمياطَ سُفْ	نُهُمُ. وقَدْ عَاثَتْ بِكُلِّ فَسَادِ
نادَى المُنَادِي بالجهاد فأقْبَلَتْ	لِلْحَرْبِ فُرْسانٌ على ميعادِ
إنَّ الصليبيين كان يَقُودُهُمْ	مَلِكٌ يُحَارِبُ مِصْرَ بالأحْقَادِ
مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ (لُويسُ) رَآى قِتَا	لَ الشَّامِ لا يُجْدِي ومِصْرَ تُعَادِي

ثم ينتقل الشاعر بنا إلى ذِكْر بعض البطولات على يد (الظاهر بيبرس)، بعدما ضرب المثل لجنود (الظاهر بيبرس)، بفشل وهزيمة هذا القائد الصليبي (لويس التاسع) ملك فرنسا؛ لكي لا يتوانوا في الدفاع عن أرضهم، وعرضهم، فيذكر حروب التتار، وما قام به (الظاهر بيبرس) فيها من مواطن القوة، والإبداع الملحمي، مسجلاً لمعركة (عين جالوت)، وأثرها على مستقبل الإسلام والمسلمين، بل والعالم كله، آخِذاً في إبراز مفاخرها، ماضياً في تمجيد أبطالها، الذين خاضوا غمار

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠٥، ١٠٦.

حروبها، مُخَلِّداً لملاحمهم وشجاعتهم؛ حتى يكونوا نبراساً، يسير على هداه كل من أراد العزة لجماعته وأمته، في الوقت الذي أهمل فيه الكُتَّابُ والمؤرخون هذه الحادثة الكبيرة، فلم يتحدثوا عن قادتها الإسلاميين، الذين قادوا المسلمين، وجمعوا شملهم، وتمكنوا من استعادة بلادهم، فقال مصوراً ذلك بأسلوبٍ شعريٍ بديع(١):

لابُـدَّ لِـي يـا (عَيْـنُ جَالُوتٍ) هُنا ... مِـــنْ أنْ أُعِيـــدَ سَنَاكِ للأذهـــانِ

وأدُورُ فـي التاريــخِ بالأقـلام دَا ... مِيَــة المَشَاعِــلِ رَحْبَــة النّيرَانِ

وأُعِيـــدُ غَارَكِ بعدما سَلَبَـتْهُ مِنْ ... ـكِ تَوَافِـــهُ الكُتَّـــابِ فـــي الأزْمَانِ

يا دُرَّةَ الشَّـرْقِ العَظِيمِ ومِنْبَرَ السَّ ... ـيْفِ الــذي يَزْرِي بِكُـــلِّ بَيَـــانِ

لقد وقف الشاعر مسجلاً لهذه المشاهد العظيمة، التي حدثت في هذه المعركة الجليلة، جاعلاً من نضال (الظاهر بيبرس) قضيته الأولى، وأمَله الذي يرجو تحقيقه في زمانه، فاستغل هذه المناسبات استغلالاً طيباً، من خلال أسلوبه الحماسي البديع، ومن ثم كان بارعاً في تصوير ما حدث في معركة (عين جالوت)، فعرض لموقف التصدي من (الظاهر بيبرس) لهؤلاء المعتدين، وبَذْل التضحيات في سبيل إنقاذ أرض الحضارات، من رجس الغزاة الناهبين لخيرات الوطن والمواطنين، فتم تكليف (الظاهر بيبرس) بقيادة قوة تكون في الطليعة؛ لاستجلاب أخبار المغول، والاشتباك معهم، ومن ثم خاض أول صدامٍ له مع قوة تَتَارِيَّةٍ، كانت تحتل غزة، فسحق طليعة الجيش المغولي، وانتصر عليهم؛ حتى فَرُّوا هاربين من أمامهم، فكانت البداية مبشرة بالخير في رفع معنويات المسلمين، وحينها التف المسلمون تحت لواء واحد بقيادة السلطان (قطز)، وهم على يقينٍ بأن النتيجة الحتمية لتوحيد كلمتهم، هي هزيمة أعداء الإسلام والمسلمين، وفي ذلك يقول الشاعر(٢):

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٦.

(٢) السابق، ص: ١٤٨.

واصْطَفَّ جَيْشُ المسلمين وبَعْد أنْ ... سَـدُّوا على الصَّحَـراءِ كـل مكانِ

أخَذَتْ مُشَاةُ الجَيْشِ مَوْقِعَها مكا ... نَ القَلْـبِ تحت قِيَـادَةِ السُّلْطَانِ

أمَّا جَنَـاحـاه فقـد كانـا مِـن الْـ ... ـفُـرْسـانِ قَـادَهُمـا بِـهِ بَطَلانِ

عَقَـدُوا لبِيبَـرْسٍ لِـوَاءَ يَمِينِـهِ ... وَلِـوَاءَ أيْسَـرُهُ إلـى الحَوْرَانِي

جَيْـشٌ يَلُفُّ على يَمِيـنِ عَـدُوِّهِ ... وعلـى الشِّمالِ يَلُفُّ جَيْشُ الثانِي

لِيُطَـوِّقَـاهُ ويُطْبِـقَا مِنْ كُـلِّ نـا ... حِيَـةٍ عَلَيْـهِ ويَضْغَط الفَكَّـانِ

من خلال العرض السابق، يتبين أن الشاعر قد حافظ على الهيكل التاريخي لأحداث الملحمة، من أولها إلى آخرها، فعرض الأحداث التاريخية في ملحمته (السموات السبع)، بأسلوب أقرب ما يكون إلى السهولة والإمتاع في عرضها، بعيداً عن الجنوح بالخيال الذي يَمَسُّ العقائد، أو يُسِيء إليها، مما جعل ملحمته تُعَد في قمة الشعر الملحمي الواعي، الذي يحمل ثقافة العصور، وفلسفة الدهور، وقد أنبأت عن سعة معلومات الشاعر، وكثرة اطلاعه، وعميق فهمه للأحداث التاريخية، وحرصه على إبراز الشخصية الإسلامية في أبهى صورها، ودعوته إلى القيم الإنسانية السامية، عن طريق معالجته لبعض القضايا الإنسانية والإسلامية، في بلاغة عربية أصيلة، وبيانٍ عربي رائع.

الفصل الثاني

من محاور الإبداع الأدبي في الدراسة الفنية

يهدف هذا الفصل إلى البحث عن أسرار الجمال الفني، في ملحمة (السموات السبع) للشاعر/ كامل أمين، منطلقاً في مؤداه من فرضية أن الأديب الذى حظي بمكانة متميزة في دنيا البيان، لابد أن تتوافر في ابداعاته شرائط الفن المطلوبة، ومما هو معلوم لدى دارسي الأدب أن عناصر الإبداع الفني –بصفة عامة– لابد أن تمتزج، وتتداخل، وتتحد جميعاً في كيان واحد، بحيث يستحيل الفصل بينها.

وعندما يتأمل القارئُ في إبداع ملحمة (السموات السبع) للشاعر/ كامل أمين، لا يمكنه الادعاء بأن مرَدَّ هذا القبول، أو الرفض، يرجع إلى عنصر دون آخر، مثل: استحسان الفكرة، أو ضعفها، وكذلك جودة الصورة، أو قبحها، وقوة الأسلوب، أو ركاكته... إلخ.

ومن ثم لم يجد النقاد بداً عند الحديث عن مكونات العمل الفني، إلا أن يتناولوا كل عنصر على حده، وهذا ما جعل الباحث يسير على هذا المنهج، فيتناول بعض الجوانب الفنية في هذا العمل الملحمي (السموات السبع)؛ حتى يمكن إبراز بعض جمالياته عن طريق بعض الروافد الفنية، ومنها:

المبحث الأول: **المعاني والأفكار**.

المبحث الثاني: **المعجم الشعري (اللغة، وبناء الأسلوب)**.

المبحث الثالث: **الصورة الفنية**، ويشتمل على ما يلي:

(مصادر الصورة الفنية، أنواع الصورة الفنية، خصائص الصورة الفنية).

المبحث الرابع: **الموسيقى الشعرية**.

المبحث الأول

المعانـي والأفكــار

لا مراء في أن معانى الأديب، وأفكاره، هي نتاج عقله، ونبع قريحته، وهى التي يروم بكل ملكاته العقلية، وأساليبه البيانية، أن تصل إلى عقول القراء، وترسخ في أذهانهم، وعلى مقدار نجاح الأديب، وتوفيقه في نقل أفكاره ومعانيه، أو إخفاقه في ذلك، يكون لإبداعه نصيبه من القبول أو العكس.

ويلحظ المتتبع للإبداعات الفكرية، والأدبية، التي أنتجتها قريحة الشاعر/كامل أمين – طيب الله ثراه– في ملحمته (السموات السبع)، حرصه الدؤوب، واهتمامه البالغ بمعانيه وأفكاره، ومحاولاته الحثيثة في أن تكون المعاني والأفكار واضحة جذابة؛ حتى يتسنى لها الرسوخ، والاستقرار في عقول القراء، وقلوبهم في آنٍ واحد.

وقد وضع النقاد العرب مقاييس لنقد الفكرة والمعنى، ومنها: (التأثر بالقرآن الكريم، الوضوح وعدم الغموض، عمق الفكرة وعدم سطحيتها... إلخ)(١) ، ويمكن دراسة المعاني والأفكار لدى الشاعر/كامل أمين في ملحمته (السموات السبع)، من خلال عناصر متعددة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: التأثر بمعاني القرآن الكريم:

نشأ الأستاذ/كامل أمين في بيئة دينية، تترنم بتلاوة القرآن الكريم، وتلهج بذكر (النبي) –عليه أفضل الصلاة والتسليم–، فتشبع بحبها منذ نعومة أظفاره، وقد أسهمت هذه النشأة في بناء حياته، على أسس مستمدة من القرآن الكريم، فكان متأثراً تأثراً كبيراً بما يحيط بمجتمعه من قضايا، سواء أكانت دينية، أم دنيوية، والمتأمل الفاحص في هذه الملحمة، يلحظ شدة التأثر في معانيه وأفكاره، بالمعاني المستمدة من القرآن الكريم، فهو المشكاة التي استضاء بها الشاعر، في بناء معانيه وأفكاره، سواء توجه بها إلى الصغار أم إلى الكبار، ومن نماذج ذلك: ما تناوله الشاعر

(١) ينظر للتفصيل: أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد بدوي، ص: ٣٦٨ – ٤٥٠.

من الحديث عن إبليس، وموقفه من قضية السجود لآدم، مستنداً في ذلك إلى قول الحق تبارك وتعالى في (سورة البقرة): "**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)** " [(١)]؛ حيث وصفه بالمكر والغرور، حينما ظن أنه أفضل الخلق جميعاً، فبيَّن الشاعر هذا الخطأ الجسيم، الذي وقع فيه إبليس، حين خالف أمْرَ ربه، فجاء العقاب له بنزوله إلى الأرض مذموماً مدحورا، فقال[(٢)]:

وَرَآهُ إبْلِيسٌ فقالَ.. لِأَيِّ شَيْ ... ءٍ أيُّهَذا يَا تُرَى رَبِّي بَرَاكْ

مَنْ أنْتَ يَا شَبَحَ التُّرَابِ. وكَيْفَ صِرْ ... تَ هُنا علَى وَطَنِ المُطَهَّرِ كالمَلاكْ

مَاذا يُرِيدُ اللهُ مِنكَ؟ ومَا الذِي ... سَتُفِيدُهُ مِنْ بَعْدِ مَا يَحْيَى ثَرَاكْ؟

وبعدما طُرِد إبليس من رحمة ربه، ثم رأى (آدم، وزوجه) ينعمان في الجنة، عقد عزمه على إغواء (آدم، وحواء)، فعمد إلى حواء، وأخذ في استمالتها إلى حديثه، موهماً إياها بأنه صادق في النصح والوفاء لها، فقال[(٣)]:

وإذ بإبْلِيسٍ يَرَى حُورِيَّةً ... تَصْغَى إلَيْهِ وتَسْتَحِي أنْ تَنْظُرَا

كانَ الجَمَالُ يُنِيرُ مِنْ فَرْطِ الصِّبَا ... إنْسَانَ عَيْنَيْهِ وَيَسْلبُهُ الْكَرَى

قالَتْ لَهُ: مَنْ يَا تُرَى هَذا الْجَدِيـ ... ـدُ؟ ومَن يَكُونُ؟ ومَنْ سَيُصْبحُ يَا تُرَى؟

جَسَدٌ بِلا رَوْحٍ وصُورَةُ فارِغٍ ... فأجَابَهَا إبْلِيسُ رِفْقاً بالذُّرَى

هَذا مِن الصَّلْصالِ!! مِنْ فُخَّارَةٍ ... أتَشْتَهِينَ بِخُلْدِنا هَذا الثَّرَى

قالَتْ: ولَكِنِّي أرَى فِي ظِلِّهِ ... شَيْئاً غَرِيباً قَدْ يُحَسُّ ولا يُرَى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨.

فهذه المعاني التي وردت في القرآن الكريم، والتي تناولها الأستاذ/ كامل أمين، تبين أن الله –سبحانه–، هو صاحب القدرة القاهرة، والرحمة العظيمة، وأن الناس حين آمنوا، والتزموا بمنهج ربهم، وساروا على سنة نبيهم، رحموا أنفسهم من التخبط في غواية الشيطان، فكل هذه المعاني التي ذكرها (كامل أمين)، قد استقاها من آيات ربه في قرآنه، ومن هنا كان للقرآن أثره الواضح، في بناء شخصيته، وفكره، وحياته كلها.

ثانياً: وضوح المعاني والأفكار، وجلاؤها:

يسعى (كامل أمين) إلى وصول رؤيته إلى المتلقين، من خلال أفكاره، التي عرضها في ملحمته (السماوات السبع)، معتمداً في ذلك على وضوح هذه الأفكار، وإشراقها، وأن تكون في متناول أذهانهم، وإلا فشل في تحقيق هدفه الذي يرجوه، وهذا الوضوح والإشراق للفكرة أو المعنى، إنما هو نابع من عنايته بأسلوبه؛ حيث إن صياغة الأسلوب لها "أثر كبير في وضوح المعنى، أو غموضه، فالعبارة المنسقة الجارية على أصول اللغة، والتي استعملت فيها المفردات استعمالاً دقيقاً، واقتُصِدَ فيها في استخدام المحسنات، تبين عن المعنى إبانة قوية، ويتضح بها المعنى إيضاحاً كاملا" (١).

ومن ثم فإن المعاني التي تناولتها ملحمة (السماوات السبع)،على تنوع موضوعاتها، تصلح أن تكون نماذج جيدة لوضوح الفكرة، وظهور المعنى، ومن أمثلة هذا الوضوح: ما صوَّره الشاعر في هبوط (آدم) إلى الأرض، حاملاً لعقيدة التوحيد، التي غرَسَها في ذريته، والتي ظلت عدة قرون، حتى انحرفت الفطرة التي خلق الله الناس عليها؛ بسبب تراكم ألوان الشرك في النفوس (٢):

بدأت حياةُ الأرض باسم الله إنّ ... ـي أستعيـذ بـه من الشيـطانِ

وتنـاول القلم العتيق وخَطَّ أوّ ... وَلَ صفـحـةٍ ويـداه تـرتعشـانِ

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد بدوي، ص ٤٤٥.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٥٦.

كتَبَتْ يداه إنَّ هذه قصةُ الدُّنْـ ـيـا وتـلك إرادةُ الرحمـــــنِ

كـانـت حيـاةُ النـاس أولَ مرةٍ إنسـانـةً تبـكي على إنســانِ

بَـدَأ الحيـاةَ بِغُربــةٍ وتلاقيـا فـي غُرْبــةٍ فـوق التراب الفاني

فقد تناول الشاعر/ كامل أمين معانيه وأفكاره، في هذا المشهد من ملحمته، بكلمات سهلة، سلسة، واضحة، بعيدة عن الغموض، والإغراب، مشيراً إلى قضية العقيدة الإسلامية من جانب، والنواحي السلبية المدمرة، التي تؤدي إليها جاهلية الشرك بالله من جانب آخر.

كما تناول (كامل أمين) مسألة إيجابية المسلم مع قضايا مجتمعه، فيؤكد على أساسٍ مهمٍ في حياة كل مسلم، وهو أن الإنسان يجب عليه أن يتفاعل مع قضايا مجتمعه الذى يعيش فيه، وأن يؤدى دوره المنوط به في الإصلاح، ومحاربة الفساد، وألا يُعَوِّل على غيره في القيام بدوره، بل لابد أن يكون رائداً في مجتمعه، وذلك من خلال بعض الشخصيات الفريدة الفذة، التي سَطَّر التاريخ أسماءهم بحروف من نور، ومن هؤلاء الأبطال: القائد المسلم (صلاح الدين الأيوبي) في قيادته للمعارك التي استمرت فترة طويلة من الزمن مع الصليبيين، كقوله(١):

هـذا صلاحُ الدِّيـنِ أقْبَـلَ يَـوْمُـهُ بمشاعـلِ التَّـاريـخِ مِنْ فَلَواتِـهِ

لَمَّـا رأى أنَّ العـروبـــة مُزِّقَـتْ فـي مُلْكِ (نُورِ الدِّينِ) بَعْد وفاتِهِ

ما بَيْـن طِفْــلٍ يُسْتَغَـلُّ وحاكِـمٍ تَخَـذَ الإمـارةَ مُنْـتَدَى شهواتِـهِ

ففي هذا النموذج السابق، يبرز الشاعر لِقُرَّائِهِ ما يدور بخلده من الأفكار والمعاني، التي صاغها بأسلوب شيقٍ ممتع، فيوضح حاجة الأمة الضرورية إلى وجود قائد من طراز خاص فريد، يجمع بين الإيمان القوي، الذى لا يتزعزع به الدين، وبين حب الوطن، الذى يتم به إنشاء الحضارة المزدهرة، والذى يواجه الغرب بشجاعة، وإيمان، وذكاء، فيشق له طريقاً بين مناهجها،

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧١.

ومذاهبها، وبين فضائلها، ورذائلها، مُتَرَفِّعاً في طريقه عن التقليد، والمحاكاة، وعن التطرف، والمغالاة.

ثالثاً: العمق، وعدم السطحية:

من الركائز المهمة التي يجب أن يتسم بها الأديب: (أن تكون لديه القدرة الفنية، التي تعينه على الغوص وراء المعاني الدقيقة، والأفكار الطريفة)، ويتأتى هذا من خلال الاهتمام بالفكرة، والعناية بالمعنى، فتأتى معانيه عميقةً، غنيةً بالدلالات، والايحاءات، وتفتح باب القبول أمام المتلقي، فلا يقع في بوتقة الالتواء، وكَدّ الذهن، وإعمال الفكر.

ولهذا يمتاز النتاج الإجمالي لـ (كامل أمين) في ملحمته (السموات السبع)، بالعمق، والنأي عن السطحية، ففي تناوله لبعض البطولات التي كانت على يد (الظاهر بيبرس)، نجده يتحدث عن معركة (عين جالوت)، وما قام به (الظاهر بيبرس) فيها، من مواطن القوة، مبرزاً لمفاخرها، ومُمَجِّداً لأبطالها؛ حتى يكون هؤلاء الأبطال علامة فارقة في جبين الأمة؛ لكي يسير على هداهم كل من أراد الرفعة لأمته، ومن ثم كان متعمقاً في عرض قضيته، بعيداً عن سطحية المعاني، وابتذال الأفكار، بارعاً في تصوير موقف التصدي من (بيبرس) لهؤلاء المعتدين، فقال مصوراً ذلك(١):

لابُـدَّ لِـي يـا (عَيْـنُ جَالُوتٍ) هُنا ... مِـــنْ أنْ أُعِيـــدَ سَنَاكِ للأذهـــانِ

وأدُورُ فـي التاريــخِ بالأقـلام دَا ... مِيَـــةَ المَشَاعِـــلِ رَحْبَـــةَ النِّيرَانِ

وأُعِيـــدُ غَارَكِ بعدما سَلَبَـتْهُ مِنْ ... ـكِ تَوَافِـــهُ الكُتَّـــابِ فـــي الأزْمَانِ

يا دُرَّةَ الشَّـرْقِ العَظِيمِ ومِنْبَرَ السَّ ... ـيْفِ الـــذي يَزْرِي بِكُـــلِّ بَيَـــانِ

(١) ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٦.

فهنا برزت الأفكار والمعاني لدى (كامل أمين)، من خلال أسلوبه الجيد، الذي اتسمت فيه المعاني بالطرافة مع العمق، وعدم السطحية، وإن كان قد تناول هذه الأفكار غيره من الشعراء، إلا أنه كان أكثر عمقاً، وأشد وقعاً على قلوب القراء والمستمعين.

رابعاً: **الانتشار، والتداول، وعدم الخصوصية:**

يشترك كثير من الشعراء، في تناول بعض المعاني والأفكار؛ انطلاقاً من أن الهموم الإنسانية في الأمة الإسلامية واحدة، فمعظم الشعراء قد يلتقون في اتجاه واحد؛ لمعالجة قضية معينة، ويتداولون المعاني والأفكار فيما بينهم، بما يشعر القارئ أنها قسمة بينهم، لذلك لا ينبغي لأحد من الشعراء أن يدَّعِي تفرده بها، ومن هنا فلا حرج على الشاعر/كامل أمين أن يطرق في المعاني والأفكار ما طرقه الآخرون قبله، طالما كانت شائعة بين الناس، ومن ذلك ما تناوله عن الإعجاز الإلهي في خلق (آدم) من العدم، ثم (حواء)، التي صدَّرَ بها ديوانه، مستحضراً في فكره هذه القدرة الإلهية، مُتَوِّجاً كلامه بهذه الفرحة التي غمرت الملائكة، من خلال انتشارها بأجنحتها، حول هذا النور الذي خلقه الله بقدرته، فيقول(١):

كانت على السُّحُب البعيدة زَفَّةٌ أخـذتْ تَلُفُّ الْحُورُ فيها الأنجُمَا

وعلَى مَنَاحِ النُّورِ أجْنِحَةُ المَلا ئِكَةِ انْتَشَرْنَ كأنَّهُنَّ مَدَى السَّمَا

ففي هذا النموذج السابق، نجد الشاعر قد تناول أشهر مجالات الإعجاز القرآني، التي حسم الله فيها قضيته قبل أن تبدأ، ويكثر فيها الجدال، وقد أفاض فيها العلماء المسلمون قديماً وحديثاً، كل حسب طاقته، مما يؤكد على أن (كامل أمين) لم يكن أول من طرق هذا الباب، وإن كان له شرف الانضمام إلى من نظم شعراً في هذه القضية، وهذا يبرهن على كثرة المعاني، والأفكار المتداولة عند الشاعر، والتي طرقها شعراء آخرون قبله، حتى لا يدَّعي أحدٌ بملكيته لها، فهي مشتركة بين الجميع.

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

ومن ذلك أيضاً: تلك الأفكار، والمعاني التي جعلها (كامل أمين) ظلاً وارفاً، يتفيَّؤه في سِرِّ الحياة؛ لمعالجة حاضره عن طريق ماضيه، من خلال بعض الأفكار التي طرق بابها الآخرون، والتي تُمَكِّنه من إسداء النصائح لأبناء المسلمين، بأن ينتبهوا إلى مثل هذه الفتن التي يواجهونها في واقعهم، ولذلك تم بناء النص الشعري في الملحمة على الحوار بين الفريقين، والذي يلقي بظلاله على إشراك المتلقي في هذا الحدث، فاستدعى هذه الفتنة الأولى، التي تعرضت لها الدولة الإسلامية في خلافة (عثمان بن عفان)، والتي مُزِّقَت فيها وحدة المسلمين بعد مقتله، فقال(١):

ما زالـت الأجيـال تَعْبُـرُ جِسْرَها ... ويَمُـرُّ مِـن بَعْـد الرَّعِيـلِ رَعِيـلُ

لمَّا استقـرَّ الدِّيـنُ هبَّتْ فِتنـةٌ ... أخـذَتْ بهـا أقصـى البلاد ذُحُولُ

كَبُرَتْ على القرآن صرعةُ مُسلمٍ ... (عثمـانُ) فيـها المُؤْمِنُ المقتـولُ

فهنا نجد أن الشاعر قد أحسن في توظيف بعض كلماته؛ لإيضاح المعنى المراد، وإيصاله إلى القراء والمتلقين.

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٨.

المبحث الثاني

المعجم الشعري (اللغة، وبناء والأسلوب)

الشعراء في كل عصر من العصور، لهم معاجمهم، وألفاظهم اللغوية، التي تخالف معاجم الجماهير من عامة الناس؛ لأنهم يُعَبِّرون بعمقٍ عن مشاعر، وأحاسيس، لم يشعر بها غيرهم، مع أنهم في الوقت ذاته، يستخدمون ألفاظاً يستخدمها معظم الناس، ولكن الفارق بينهم وبين غيرهم، أنهم يرفعون هذه الألفاظ اللغوية، من مكانتها العادية المعهودة إلى مكانة أرفع شأناً، فيكسبونها قيماً جديدة، تجعلها قادرة على التعبير عما في نفوسهم من المشاعر العميقة؛ مما يُدَلل على أن المعجم الشعري يُعَد "لبنة من أقوى اللبنات في بنية العمل الشعري، وكلما كان الشاعر موهوباً في توظيفه لهذا المعجم، من خلال ثقافته، وطبعه الموهوب، كانت القصيدة في محيط الإبداع الأدبي الرائد" (١).

كما أن القدرة الإبداعية للشاعر في استعماله للغته، وكيفية بناء أسلوبه عليها، هي التي تجعله قادراً على تنسيق العلاقات بين كلماته، وبالتالي تعطي معنى جديداً لكل لفظة من ألفاظ لغته؛ لأن الشاعر "حينما يُطوع اللغة لرؤيته الشعرية، يلجأ إلى استخدام سمات لغوية معينة، واللغة الشعرية تتجلى في طريقة اختياره لمفرداته، ولألفاظه، وتراكيبه" (٢)، ومن ثم جاءت دراسة المعجم الشعري معتمدة على محورين رئيسيين، وهما: (اللغة، وبناء الأسلوب).

اللغة

اللغة هي البريد لقلوب الناس وعقولهم، كما أنها مناط القدرة الإبداعية عند الشاعر، وعلى قدر نجاح الأديب في توظيف لغته، يكون لإبداعه القبول والحظوة لدى القراء والنقاد،

---

(١) المطولات الإسلامية في شعر مرسي شاكر الطنطاوي (دراسة تحليلية فنية)، د/ هشام محمد البيه، ص: ٧١، ط: الأولى، الشروق ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٢) الظواهر الفنية في الشعر الوجداني لدى شعراء أبوللو، د/ طلعت عبد العزيز أبو العزم، ص: ١٤٨-١٤٩، ط: الأولى، شركة طنطا للمهمات المكتبية ١٩٨٨ م.

ومن خلال تآلف ألفاظ اللغة، وتناسق كلماتها، يتأتى المعنى في سياق الجملة الشعرية؛ حيث إن "تقويم القصيدة، يجب أن يركز على الكلام، وعلاقاته البيانية، لا على الفكرة، والموضوع، فليس معنى القصيدة فيما تمثله، أو فيما تتحدث عنه، وإنما في تسجيلها البياني" (١)، ولذلك فإن الأديب الموهوب هو الذى يستطيع أن يوائم بين ألفاظه، وأفكاره، وصوره؛ لنقل أحاسيسه بأسلوب مؤثر جذاب.

وقد كان الشاعر/ كامل أمين – رحمه الله– أديباً موهوباً، وشاعراً متمكناً، من غير مبالغة، ولا تَحَيُّز، فكان على علمٍ كبيرٍ بأسرار اللغة العربية، محباً لها، شغوفاً بالمطالعة في الكتب المؤلفة بها، وقد تضافرت عوامل كثيرة، ساعدته للوصول إلى ذلك، منها: (استدعاؤه للأفكار العميقة الناضجة، والمعاني الطريفة المبتكرة، والصور الرائعة الخلابة، وتحليه بالموهبة الشعرية الراسخة)، ونتيجة لهذه العوامل وغيرها، كان ظهور الأستاذ/ كامل أمين في صورة الشاعر البليغ، صاحب اللغة السلسة المشرقة، والمفردات اللغوية في ملحمته (السموات السبع)، التي امتازت بـ: (الألفة، وقرب المعنى، والبعد عن الغرابة)، كما تميزت اللغة الشعرية عند (كامل أمين) بالفصاحة، فلا يكاد يوجد لفظٌ عاميٌّ مذكور في ملحمته (السموات السبع)، وإن وُجِدَ ذلك، فبصفة نادرة لا تذكر، وهذا إن دل فإنما يدل على اعتزازه بلغته العربية، لغة القرآن الكريم.

من هذا المنطلق اهتم الشاعر اهتماماً بالغاً بلغته، مراعياً في ذلك أن يكون الإبداع الأدبي في ملحمته (السموات السبع)، بمنأى عن الوقوع في الأخطاء اللغوية، التي تشين جمال الأسلوب، سواء أكانت أخطاء تتعلق بالتراكيب –وهو ما يعرف بعلم النحو–، أم كانت تتعلق بأبنية الكلام –وهو ما يعرف بعلم الصرف–، وهذا أيضاً مع حرصه الدؤوب على ألا يقع في أخطاء، تخالف الاستعمال الصحيح الوارد عن العرب الفصحاء، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها:

(١) الظواهر الفنية في الشعر الوجداني لدى شعراء أبوللو، د/ طلعت عبد العزيز أبو العزم، ص: ١٤٨– ١٤٩، ط: الأولى، شركة طنطا للمهمات المكتبية ١٩٨٨م.

ما دار في حديثه الشعري عن عملية الإغواء، التي قام بها الشيطان لـ (آدم، وحواء)، والحوار الذي قام بينهم جميعاً؛ مما كان سبباً في خروج (آدم، وزوجه) من الجنة، فقال(١):

قالتْ. أرَى الدُّنْيَا تَضِيقُ فقال كَيْـ ـفَ تَضِيقُ. مَاذا جَدَّ فِي دُنْيَاكِ

الجَنَّـةُ الخَضْـرَاءُ حَوْلَيـنَا وعَيـ ـنُ اللهِ تَرْعَانِـي كمَا تَـرْعَاكِ

عجَبـاً أتُنْكِرُ عَيْنُكِ الدُّنْيَا وكُلُّ سَمَـائِـهَا ونُجُومُها عَيْـنـاكِ

قالَتْ لـهُ يَـوْمٌ يُكَـرِّرُ نفسَـــهُ فِي عُمْرِنا. قالَ اشْكُرِي مَوْلاكِ

فالأبيات السابقة في ملحمة (السموات السبع)، تمتاز برِقَّة الألفاظ، وأُلْفَتِها، وسهولة المعاني، وبُعدهما –أي الألفاظ، والمعاني– عن الغرابة المنكرة، والوحشية المهجورة؛ لأن كل لفظٍ لدى الشاعر، قد وُضِع في مكانه، فإذا لجأ الشاعر إلى الرقة واللين، فإنما يحتاج المقام ذلك، وذلك كـ (استخدامه لألفاظ المجال الروحي)، حينما ذكر هذه الكلمات (**الجنة الخضراء، عين الله ترعاني، اشكر مولاك، قال اشكر مولاك... إلخ**)، وإذا لجأ إلى التفخيم والجزالة، ففي وقت اقتضاء المقام للجزالة، كقوله(٢):

وهناك في (المنصورةِ) التَقَت الجَحَا فِلُ بالجَحَافِلِ والرِّمَـالُ صَـوَادِي

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على ثروته اللغوية الواسعة، وثقافته المتنوعة، وحِسِّه المُرْهَف في تطويع ألفاظه؛ للتعبير عن معانيه.

ويمكن تعليل هذا: بأن (كامل أمين)، كان مراعياً في نظمه الشعري، لحال المخاطبين، والقراء، فلم يكن شاعراً لذوي الخاصة من العلماء، والأدباء فحسب، بل كان شاعراً للأمة على اختلاف طبقاتها، وليس معنى مراعاة حال المخاطبين هنا: أنه ينزل من التحليق في سماء البيان، إلى حضيض الإسفاف، والركاكة، كلا، بل ثمة بون بعيد بين الألفة المبتغاة، والإسفاف المرفوض،

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

(٢) السابق، ص: ١٠٦.

والمقصود أن الشاعر/ كامل أمين، حاول أن يكون كلامه من قبيل السهل الممتنع، الذى إذا قرأه الجاهل، ظن أنه يحسنه، فإذا رامه تعذر عليه، فلا إسفاف، ولا ركاكة، ولا غرابة، ولا وحشية.

كما لا يعنى هذا أيضاً: نزاهة لغته الشعرية في ملحمته (السموات السبع) من مفردات، قد يجهل نفر من الناس معانيها، ويعدونها غريبة غير مألوفة، مما قد يفتح باب القدح في لغته، بحجة أنها تضم ألفاظاً عامية، وهذا ما يرفضه الذوق الأدبي؛ لأن الشاعر الذى لا يثرى لغته بألفاظ جديدة، يستمدها من كثرة مطالعاته، مكتفياً بما عنده من زاد اللغة الذى يملكه، سرعان ما ينفد زاده، ويقع في حمأة تكرار المفردات والجمل، بصورة تدعو إلى الرثاء قبل الذم، ومن الاستشهادات الواردة على ذلك قوله(١):

وإذا (بِأُسْطَى) قال في أُذن الأمِيـ ـرِ نخافُ مِنْ (عِثْمان) حين يَثُورُ

انظُرْ إليه تَجِدْهُ يُفَتِّلُ شَعْرَ شَا رِبَهُ (وزُقْلته) هناك تُشِيرُ

وكذلك قوله(٢):

كانت قيادتُهُمْ تُمَثِّلُ كُلَّ ما فِي الشَّعْبِ مِنْ فَوْضَى فَهُمْ أَلْوانُ

الشَّيْخُ والتُّرَبِيُّ والنَّجَّارُ والْـ ـحَجَّارُ والقَرَوِيُّ والعَجَّانُ

هذا بِسِكِّينٍ وذاك (بِبَلْطَةٍ) وأشَدُّ ما ادَّرَعُوا بِهِ الأيْمَانُ

ومَشَتْ جُمُوعُ الشَّعْبِ في خمسين ألْـ ـفاً مِنْ رِعاعٍ قادَهُمْ عِثْمانُ

ولِكُلِّ طائفةٍ كَتِيبَتُها و (أُسْـ ـطَى) و (المعَلِّمُ) خَلْفَهُ الصُّبْيَانُ

فكما رأينا بعض الألفاظ العامية لدى (كامل أمين)، التي تم سوقها في ثنايا نظمه

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠١.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠٧، ١٠٨.

الشعري السابق، وإن كانت نادرة بالنسبة للمجموع الكلي لملحمة (السموات السبع)، إلا أن الشاعر ربما اضطر إلى هذا النزول بلغته؛ لأنه يصور ثورة الشعب، حينما استعد لقتال الصليبيين، وكان من بينهم: الأُمِّيّ، والمتعلم، فأراد أن تكون الصورة معبرة عن الواقع، صادقة معه، من خلال تلوينها بلون الطبيعة المناسبة، إلا أن مقاييس الشعر الرفيع، لا تعترف بهذا.

بناء الأسلوب

إن المتأمل في الجانب الأسلوبي لملحمة (السماوات السبع)، يجد أن أسلوب الشاعر يتميز بالتنوع، وهذا إن دلَّ، فإنما يدل على مدى إيمانه القوي بالقضايا التي يناقشها، والموضوعات التي يتناولها، وقد كان أسلوب شاعرنا وعاءًا صالحاً؛ لنقل أفكاره، ورؤاه إلى الآخرين، مما يعطي دلالة واضحة على أن الأسلوب الشعري هو مفتاح شخصية الشاعر؛ لأنه ينبئ عما يُكِنُّه في دخيلة نفسه، فهو يُعَدّ بمثابة "الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني، أو نظم الكلام، وتأليفه؛ لأداء الأفكار، وعرض الخيال" (١)، ومن ثم تنوعت أساليبه، واتسمت بخصائص مميزة، منها:

أولاً: مزاوجة الأسلوب بين الرصانة، والرِّقَّة:

تنوعت أساليب الشاعر/ كامل أمين بشكل لافِتٍ للأنظار، فهو يزاوج بين الأساليب الرصينة الجزلة، والأساليب الرقيقة العذبة، متخيراً منها في كل موضوع يتناوله، ما يراه أدَقّ في التعبير عن خلجات نفسه، وليس معنى الرصانة والجزالة: أن يكون الكلام حوشياً خشناً، ولكن معنى الجزالة كما حدده (أبوهلال العسكري)، يتمثل في قوله: "وأما الجزل، والمختار من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها" (٢)، ومن تلك الصور التي زاوج فيها بين الرقة، والجزالة:

(١) الأسلوب، أحمد الشايب، ص: ٤٦، ط: الثامنة، مكتبة النهضة المصرية.

(٢) الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن مهران العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: ١٦٤، ط: المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.

صورة التآلف بين جموع المسلمين، وأهمية الوحدة المرجوة، التي فيها خلاص البلاد والعباد من بطش المستعمرين، حينما تمت الدعوة إلى النضال في مقاومة (لويس التاسع) ملك فرنسا، وجنوده الذين أشعلوا النار في دمياط، بعد تَرْكِ المسلمين لها، وفي ذلك يصور (كامل أمين) هذا المشهد بقوله(١):

وتـوالـت الأيـــام يـوماً بعد يـوْ ... مٍ والحـــوادثُ تلتـقِـي بالـوادِي

قال الرَّسُولُ رَسَتْ على دمياطَ سُفْـ ... ـنُهُـمُ. وقَـدْ عَاثَـتْ بِكُلِّ فَسَادِ

نـادَى المُنَـادِي بالجهـاد فأقْبَلَتْ ... لِلْحَـرْبِ فُرْسـانٌ على ميعادِ

كان انتصـارُهُمْ قُبَيْـل الزَّحْفِ مُبْـ ... ـتَسَراً ببعضِ قُـرَى وبَعْضِ بـلادِ

وهناك في (المنصورةِ) التَقَت الجَحَا ... فِلُ بالجَحَافِلِ والرِّمَـالُ صَـوَادِي

فإذا الدِّمَـاءُ تَفِيـضُ أنْهَاراً عَلـى ... جُثَـثٍ تَقُـومُ بِهِنَّ كالأطْـوَادِ

فالمتأمل في أساليب الشاعر، يجد أنه قد زاوج بين الجزالة، والرقة؛ حيث جاءت أساليبه في بعض الأحيان، مُتَّسِمَةً بالقوة، ورصانة العبارة، وجودة السّبك، وإحكام النسج، كما جاءت متلاحمة، ومتآزرة، مع ما يدور في فكر الشاعر، كاشفة عما في نفسيته، حيث قال: (**كان انتصارُهُمْ قُبَيْل الزَّحْفِ مُبْتَسَراً ببعضِ قُرَى وبَعْضِ بلادِ**)، كذلك جاءت أساليبه في أحيان أخرى رقيقة، مُحَمَّلة بمعاني التآخي، والحث على الوحدة، والنضال، حيث قال: (**فإذا الدماء تفيض أنهاراً على جثثٍ تقوم بهن كالأطواد**)، وكذلك قوله: (**وهناك في "المنصورةِ" التَقَت الجَحَافِلُ بالجَحَافِلِ والرِّمَالُ صَوَادِي**)، وإذا كان الشاعر قد حَمَّل هذا البيت بعض الألفاظ الرصينة كـ (**الجحافل، وصوادي**)، إلا أنه أحدث من خلالها نوعاً من الاستثارة الذهنية عند القارئ، ومن ثم جاءت هذه الأساليب موضحة للمعاني، فنقلتها من حالتها الذهنية إلى حالة تصويرية، مما يدل دلالة واضحة على أن الشاعر، أراد أن يعطي إشارة إلى حال الأمة في ماضيها

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠٥، ١٠٦.

وقت ترابطها، وتماسكها كالجسد الواحد، وفي حاضرها الذي دَبَّ فيه التفرق، والتشرذم، والتشتت، وأصبحت مطمعاً للمعتدين الغاصبين.

ثانياً: الأساليب بين الخبر والإنشاء:

تتعدد الأساليب في التجارب الشعرية تبعاً لمقتضياتها، فلم تكن على نسقٍ واحد، فتارة: يعالج الشاعر ظاهرة، تبعث على الفرح، والسرور، وتارة أخرى: ينبعث منه إحساس بالكدر، والغضب، ومن هنا فإن تنوع الأساليب عند الشاعر أمر طبعي، فلا يكاد يوجد شاعر، يسير على أسلوب موحد من الخبر، أو الإنشاء، وهذا ما تم استنتاجه في ملحمته (السماوات السبع)، من تنوع الأسلوب بين (الخبر، والإنشاء).

(١) الأساليب الخبرية:

كثرت الأساليب الخبرية عند الشاعر في ملحمة (السموات السبع)؛ لأنه تحدث عن وقائع حياتية، وحقائق تاريخية، تفاعلت معها روحه المرتبطة بعقيدته الإسلامية، ومن الأساليب الخبرية التي كان لها دلالة قوية على تأكيد المعنى: حديثه عن أهمية التآخي، والترابط بين المسلمين، من خلال مزاوجته بين الجملتين (الإسمية، والفعلية)؛ حيث عبر في البداية بـ (الجملة الإسمية)، فقال: (**أما لويس فإنه قد فرَّ منهزما..**)، ثم أردف بـ (الجمل الفعلية) بعد ذلك، فقال: (**طلبوا الأمان فأمَّنوهم..،آوَى (لُويسُ) لِبَيْتِ شَيْخٍ..، طافُوا بِهِ الأحْيَاءَ مَحْمُولاً على جَمَلٍ وحَوْلَيْهِ الجُمُوعُ تَصِيحُ**)؛ للدلالة على العزيمة القوية للمصريين آنذاك بقيادة (الظاهر بيبرس) في مواجهة الصليبيين؛ وأخذهم العبرة مما حدث لهم قبل ذلك، وفي ذلك يقول (كامل أمين)(١):

أمَّـا (لُويـسُ) فإنّـهُ قَـدْ فَـرَّ مُنْ ـهَزِمـاً وَحَوْلَيْـهِ الرُّؤُوسُ تَطِيـحُ

طَلَبُـوا الأمـانَ فَأَمَّنُـوهُمْ بَعْـدَ ما دُفِـنَ القَتِيـلُ وعُـولِجَ المَجْرُوحُ

آوَى (لُويسُ) لِبَيْتِ شَيْخٍ اسْمُهُ (ابْـ ـنُ الصَّالِحِيّ) كأنَّـهُ مَذبُـوحُ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١١٠.

طافُــوا بِـهِ الأَحْيَاءَ مَحْمُولاً على جَمَـلٍ وحَوْلَيْــهِ الجُمُـوعُ تَصِيـحُ

ورَمَوْهُ في دار (ابْنِ لُقْمانٍ) سَجِيـ ـناً فـي السَّلاسِـلِ يَلْتَقِيهِ صَبِيحُ

وفي ذلك إشارة واضحة إلى أسلوب قوي من الشاعر، يفيض بالعزة، والبسالة في مواجهة الأعداء، ودور المصريين الحيوي في التحامهم، وتوحيد كلمتهم، فجاء أسلوبه خبرياً في أبياته؛ حيث ابتدأ أبياته بالجمل الإسمية، ثم الفعلية؛ ليدل على تأكيد المعنى، وتوضيح المضمون، الذي يبعثه الشاعر للمتلقي، من خلال خبرته، ومن ثم أكثر الشاعر من وسائل (التقرير، والتقوية، والإصرار، والعزيمة) في أساليبه الخبرية.

(٢) الأساليب الإنشائية:

اعتمد (كامل أمين) في بعض موضوعاته التي يناقشها على الأساليب الإنشائية؛ للتعبير عن أفكاره، وتحقيق التأثير المأمول مما يهدف إليه، فالإنشاء في مفهومه "قولٌ لا يحتمل صدقاً، ولا كذباً، أي لا يُنسب لقائله صدقٌ، أو كذب" (١)، ومنها ما يلي:

أ- الاستفهام:

من الأساليب التي وُجِدَت في ملحمة (السموات السبع): (أسلوب الاستفهام)، هذا الأسلوب الذي اتخذ فيه الشاعر أنماطاً متعددة، وخرج بصِيَغِه المتنوعة من الحقيقة إلى المجاز؛ وذلك لموافقة أسلوب الاستفهام لنفسية الشاعر، وإظهار مشاعره التي يسعى لإبرازها، وذلك حيث يقول(٢):

وَرَآهُ إبْلِيسٌ فقــالَ.. لِأَيِّ شَـيْ ءٍ أَيُّـهَـذا يَا تُــرَى رَبِّـي بَـرَاكْ

مَنْ أَنْتَ يَا شَبَحَ التُّرَابِ. وكَيْفَ صِرْ تَ هُنا علَى وَطَنِ المُطَهَّرِ كالمَلاكْ

مَاذا يُـرِيـدُ اللهُ مِنـكَ؟ ومَـا الـذِي سَتُفِيـدُهُ مِنْ بَعْدِ مَا يَحْيَـى ثَرَاكْ؟

(١) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ص: ٨٨، ج: الثاني، ط: المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨.

كما قال أيضاً عارضاً لحال إبليس، عندما رأى خليفة الله في أرضه(١):

كمْ عِشْتُ في مَلأِ السَّماءِ مُسَبّحاً ... وعَبَـدْتُــهُ فـي كُـلِّ لا متناهي

كَـمْ مِـن صـلاةٍ هَـزَّت الدُّنْيا لهُ ... ومناسِـكٍ عَـزَّتْ على أشباهِـي

أو ليس في هذي العبادةِ ما يُسَا ... وِي ذلك المَسْخَ الوضيعَ الواهِي

فهنا خرج أسلوب الاستفهام عن (المعنى الحقيقي) المتمثل في عمارة الأرض، وعبادة الله، إلى (المعنى المجازي) المتمثل في استنكار هذا المخلوق الذي خلقه الله بقدرته؛ ليكون خليفته في أرضه، فهو إنكارٌ مُنافٍ لأصول المنهج الرباني، في عمارة الأرض، وعبادة الخالق سبحانه، كما أنه إنكار للأسس التي قام عليها الشرع الحنيف، في وضع الركائز الأساسية للشريعة الإسلامية، التي تقوم على الآداب، والأخلاق، والائتمار بما أمر الله، والانتهاء عما نهى عنه – سبحانه–.

هذا إلى جانب الاستفهامات المتنوعة في أجزاء ملحمته، والتي تنبئ عن أنها كانت أداة جيدة، تخدم النص، وتحقق له أهدافه بصورة مرضية.

ب– النداء:

لقد تناول (كامل أمين) في نظمه لملحمته (أسلوب النداء)؛ وذلك لمرونة صيغه، وكثرة ما يحويه مضمونه، ومن الاستشهادات التي تناولها في ذلك: عرضه لموقف (الظاهر بيبرس) في تضحياته؛ من أجل إنقاذ أرض الحضارات، ومجابهته للغاصبين المعتدين، مشيراً إلى دلالة التعظيم، التي تتحرك في نطاق الوظيفة الانفعالية؛ لتعبر عن انفعالات المتكلم، وحُبِّه لِمَن يناديه، فقال(٢):

لابُـدَّ لِـي يـا (عَيْـنُ جَالُوتٍ) هُنا ... مِـــنْ أنْ أُعِيـــدَ سَنَاكِ للأذهــانِ

وأدُورُ فـي التاريــخِ بالأقـلام دَا ... مِيَــة المَشَاعِــلِ رَحْبَــة النِّيرَانِ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١١.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٦.

وأُعِيـــدُ غَارَكِ بعدما سَلَبَـتْهُ مِنْ ... ـكِ تَوَافِـــهُ الكُتَّـــابِ فـــي الأزْمَانِ

يا دُرَّةَ الشَّـرْقِ العَظِيمِ ومِنْبَرَ السَّ ... ـيْـفِ الـــذي يَزْرِي بِكُـــلِّ بَيَـــانِ

فهنا وظف الشاعر في البيت الأول والأخير من النموذج السابق (يا) النداء، وهي أم الباب، في نداء (عين جالوت) مرة، ثم وظَّفَها بعد ذلك في نداء (دُرَّة الشرق) مرة أخرى؛ لإبراز رفع الصوت، والاستطالة فيه، وفي هذا مناسبة للمواقف الحربية، التي تحتاج إلى الجهر بالصوت، ومَدِّ الكلام، واستطالته، وقد جاء (النداء) على حقيقته، فأتبعه بالعاطفة الصادقة؛ حيث إعادة المجد المسلوب.

ج: التمني:

لقد استخدم الشاعر (أسلوب التمني)، وإن كان هذا التمني ليس صريحاً بالأساليب المعروفة له، لكنه ضَمَّنه ذلك، حينما تمنى أن تعود الأمة إلى سابق عهدها من العزة والكرامة، من خلال إشادته بالجهود المضنية للرئيس الراحل/ جمال عبد الناصر، الذي ارتفع صوته وسط هذا الظلام، منادياً بالوحدة، داعياً إلى لَمِّ شَمْلِ المسلمين، على غرار ما حدث في زمن (صلاح الدين الأيوبي)؛ ليقفوا صفاً واحداً، في مواجهة ما يحيق بالعرب والمسلمين من أخطار وأهوال، فقال(١):

هذِي الرِّسَالةُ مِنْ صَلاحِ الدِّينِ مَا ... زالَـتْ تَمُـدُّ لنا الشُّعاعَ هادِيَـا

(بِجَمَالِ عبد الناصـر) انطلَقَتْ فَعَا ... دَ بِـهِ (صلاحُ الدينِ) فينـا ثانيا

أرْقَى الشُّعُوبِ هي التي إنْ رَدَّدَتْ ... تاريخَهَا مَهَـرَتْ عليـهِ الغاليـا

واسْتَلْهَمَـتْ أحداثَ ماضِيها لِتَأ ... خُـذَ مِنْـهُ عِبْرَتَهَا وتصعد ثانيا

فقد اكتنفت الأبيات الشعرية السابقة أمنيات رائعة، وكان ورودها مرتبطاً بمعناها؛ حيث إن (التمني) يتمثل في طلب تحقيق شيء محبوب، ومن الأمنيات المحَبَّبة لدى الشاعر: ارتباطه

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨١.

بأمته، ومعالجة قضاياها، فلم يقف الشاعر فيها عند حَدِّ التمني، بل تعدى ذلك إلى الإيحاء بتفضيل الماضي المجيد، الذي صَوَّره في شخص هذين القائدين (صلاح الدين الأيوبي، وجمال عبد الناصر)، على الحاضر المؤسف، الذي تفككت فيه وحدة العرب والمسلمين، وفي هذا رفض للواقع المخزي، وثناء على البطولات المدفونة في عبق التاريخ، وفي هذا تمني لعودة الأمة إلى سالف عهدها الوَضَّاء، عن طريق امتثالها لنهج عظمائها الأوائل، في التكاتف لنصرة الدين.

فهذه بعض الأساليب الإنشائية، التي وردت في إبداع صاحب ملحمة (السماوات السبع)؛ للدلالة على تشكيل صورته الشعرية، التي تنم عن نفسه، وتعرب عن ذاته.

ثالثاً: التكرار:

يلجأ (كامل أمين) أحياناً إلى تكرار بعض الجُمل بعينها، وإعادة مفرداتها بذاتها، في ثنايا أبياته الشعرية، ولعل السبب في ذلك: رغبته في تأكيد الكلام، أو التأثير في نفس القارئ، أو إثارته وجذبه إلى تلقي الفكرة بالقبول، فهو "من الوسائل اللغوية، التي يمكن أن تؤدي في القصيدة دوراً تعبيرياً واضحاً، فتكرار لفظة ما، أو عبارة ما، يوحي بسيطرة هذا العنصر، وإلحاحه على فكر الشاعر، أو شعوره" (١).

ومن أبرز النماذج التي استخدم الشاعر فيها ظاهرة (التكرار): قوله (**وإذا بصوت الله يهتف قائلاً..**) في أكثر من بيت شعري؛ ليبين عظم المصيبة، التي وقعت على إبليس حين عصى ربه، وذلك حينما قال(٢):

وإذا بصـوت الله يهتـف قائــلاً يـا أيهــا الملك افعلوا ما تؤمرون

وكذلك قوله(٣):

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ علي عشري زايد، ص: ٦٥، ط: الرابعة، مكتبة الشباب، القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠.

(٣) السابق، ص: ١٠.

وإذا بصـوت الله يهتـف قائــلاً أخـرج طريـداً. قال فأنظرني معه

وكذلك تكراره لهذه الكلمات (**ما زالت الأجيال تعبر جِسْرَها**) في مواضع أخرى؛ للدلالة على إعلاء نبرة الاهتمام بـ (التكرار)، والإفصاح عن أهمية ما يتناوله الشاعر من المعاني، التي تكتنفها هذه الجمل المكَرَّرة، حيث قال(١):

ما زالـت الأجيــال تعبــر جسرها ويَغِيــبُ جِيــلٌ ثم يُقبــل جيــلُ

وكذلك قوله(٢):

ما زالــت الأجيــال تعبــر جسرها والنــاس تَظلِم والدمــاءُ تَسِــيلُ

وكذلك قوله(٣):

ما زالـت الأجيــال تعبــر جسرها ويَمُــرُّ مِنْ بعــد الرَّعِيــلِ رَعِيــلُ

وكذلك قوله(٤):

ما زالــت الأجيــال تعبــر جسرها والأرض حَــرْبٌ والوجــودُ جُنُونُ

فقد تكررت بعض الجُمَل في أبياته الشعرية؛ للدلالة على أن (التكرار) ظاهرة أسلوبية لدى الشاعر في ملحمته، تدل على حسن تفكيره، وذكائه المفرط في تناول موضوعاته، واستمالة القارئ له.

فهذه بعض الأمثلة التي تحقق الإبداع للأساليب الشعرية بكافة صورها، من جمال، وروعة، وإمتاع، وإثارة، وتدعو إلى إعجاب القراء، وتقديرهم لملحمة (السموات السبع) من خلال ظاهرة (التكرار)، والتي أضفت مزيداً من الدلالات على إرادة الشاعر/ كامل أمين، كتقريره للمضامين

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦

(٢) السابق، ص: ٦٦.

(٣) السابق، ص: ٦٨.

(٤) السابق، ص: ٦٨.

المقصودة، وتأكيده على العديد من المعاني المرجوة.

وهذا كله مشروط بأن يكون الإبداع الأدبي صادراً عن طبع فياض، وقريحة سيَّالة، لا عن تكلف، وافتعال، وقد كان الشاعر/ كامل أمين في طليعة الشعراء الذين أدركوا هذا، والتزموا به عن إيمان، لا عن إكراه، فلا يميل إلى تكلف البديع، كرفضه للتكلف مطلقا؛ لأنه يعالج واقعاً ملموساً يعيش فيه.

ومن هنا يمكن إجمال سمات (اللغة، والأسلوب) فيما يلي:

١- امتازت لغة الشاعر في ملحمته (السموات السبع) بالألفة، وقرب المعنى، فالألفاظ الغريبة قليلة، ولا تعد مطعناً في وضوح مفردات المعجم اللغوي عنده.

٢- اتسمت لغة (كامل أمين) بالفصاحة، وإن وجدت بعض الألفاظ العامية بندرة شديدة، فإنها ترجع في غالبها إلى أنها حكاية منه عن غيره.

٣- اتسم استخدام (كامل أمين) للغة بالدقة، وإدراك أسرار الألفاظ ومعانيها، فَقَلَّ وقوعه في ملاحظات، توحي بعدم دقته في استخدام مفردات اللغة.

٤- كثرت الأساليب الإنشائية عند (كامل أمين)، وكانت لأغلبها دلالات، وإيحاءات، لم تقف عند المعنى المباشر، بل تجاوزته إلى معان أخرى مجازية.

٥- أبرز ما يميز اللغة، والأسلوب عند (كامل أمين)، صدورهما عن طبعٍ فياضٍ، وقريحةٍ مُتَّقِدَة، زاد من ثرائهما، اطلاعه الواسع، وثقافته الغزيرة.

المبحث الثالث

الصــورة الفنيــة

تتآزر الصورة الفنية مع غيرها من الأدوات الفنية الأخرى؛ لتشكل قوام النص الإبداعي الأدبي، ولا يكتمل النص الأدبي إلا بوجود صورته التي تزينه، وتغلفه بإطاره الفني، فهي من أهم المميزات الفارقة بين الأدباء، ولذلك فإن مفهومها الأدبي يكمن في: "الشكل الفني الذى تتخذه الألفاظ والعبارات، بعد أن ينظمها الشاعر في سياقٍ بيانيٍ خاص؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة، وإمكاناتها، في الدلالة، والتركيب، والإيقاع، والحقيقة، والمجاز، والترادف، والتضاد، والمقابلة، والجناس، وغيرها من وسائل التعبير الفني" (١).

وفي هذا توضيح دلالي في أن الصورة الفنية، رغم اعتمادها في الأساس على أساليب البيان المعروفة من (تشبيه، واستعارة، وكناية.. إلخ)، إلا أنها لم تكتفِ بذلك، بل تجاوزت ذلك إلى ضرورة أن تكون تلك الأساليب متضمنة بعضاً من المشاعر، مما يجعلها أقوى تأثيراً في نفوس القراء، ومن هنا يتبين أن الصورة تعد "أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر، وأحاسيس، وأدق وسيلة، تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة، وقوة، وأجود مُوَصِّلٍ إلى الآخرين في سرعةٍ، وإيجازٍ، ودقة، والصورة أجمل، وأنضر طريقة في شَدِّ العقل إليها، وربط الإحساس بها، وتجاوب المشاعر لها" (٢).

وقد زخرت ملحمة (السموات السبع)، بالكثير من الروافد الفنية الرائعة لصورتها الشعرية، والتي كان لـ (مصادرها، ووظائفها، وأنواعها) دور كبير في نقل أفكار الشاعر، وأحاسيسه إلى القراء؛ لأنها جاءت نتاج الطبع الموهوب الصادق، لا نتاج التكلف، ومن تلك الروافد:

---

(١) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د/ عبد القادر القط، ص: ٤٣٥، ط: دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٧م.

(٢) الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د/ علي صبح، ص: ١٧٢، ط: الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

أولاً: مصادر الصورة:

تشكلت مصادر الصورة لدى (كامل أمين) في ملحمته (السموات السبع) من مصدرين أساسيين، يندرج تحت كل منهما فروع أخرى، وهذان المصدران يتمثلان في: مصدر (الطبيعة) التي تشتمل على (الطبيعة الجامدة، والطبيعة المتحركة)، ومصدر (الثقافة) التي تنوعت بين: ("دينية" نابعة من وحي القرآن الكريم، و "أدبية" معتمدة على الأدب العربي، و "تاريخية" مستمدة من عبق التاريخ الإسلامي العريق).

– **أما المصادر الطبيعية:** فكل ما يتعامل معه الإنسان حتى مع نفسه، هو جزء من الطبيعة، وبذلك تكون الطبيعة من أهم مصادر الصورة لدى الشاعر.

– **وأما المصادر الثقافية:** فهي تعد أيضاً مصدراً واضحاً لصورته الشعرية؛ نظراً لتعدد روافدها، وتعمُّق الشاعر فيها، تلك الثقافة التي يستشعرها القارئ من الشاعر، عن طريق إمعان النظر في نتاجه الشعري، وقد لا يكون الباحث مبالغاً إذا ما قال: إنه يستشعر كثرة الروافد الثقافية في كل قصيدة لدى (كامل أمين)، وهذا نابع من أنَّ الجانب الثقافي لديه، لم يكن محصوراً في مجالٍ واحد، بل كان –كما يبدو– متعدد الاهتمامات، ومن تلك الروافد الثقافية: (الدين الإسلامي) من خلال: (القرآن الكريم)، و (الأدب العربي) بشعره، وأدبائه، وفنونه، و (الأخلاق) بحسنها، وقبيحها، و (التاريخ العربي) بعصوره المختلفة، فكل ذلك يعد مصدراً قوياً للكثير من صوره، وسوف يتناول الباحث في الصفحات التالية بعضاً من هذه المصادر المتعددة للصورة لديه.

١ – المصادر الطبيعية:

إن المتأمل في شعر ملحمة (السموات السبع)، يجد أنَّ الطبيعة كانت مصدراً مهماً للشاعر في الكثير من صوره، ومن ثم فإن الباحث سيتناولها من حيث كونها (جامدة، ومتحركة):

أ– الطبيعة الجامدة:

لقد كان للطبيعة الجامدة دورٌ مهمٌ في اعتماد (كامل أمين) عليها، وأخْذِ صوره منها، ومن ذلك قوله (١):

قالتْ. أرَى الدُّنْيَا تَضِيقُ فقال كَيْـ ـفَ تَضِيقُ. مَاذا جَدَّ فِي دُنْيَاكِ

الجَنَّـةُ الخَضْـرَاءُ حَوْلَيـنَا وعَيـ ـنُ اللهِ تَرْعَانِي كمَا تَـرْعَاكِ

عجَبـاً أتُنْكِرُ عَيْنُكِ الدُّنْيَا وكُلُّ سَمَـائِهَا ونُجُومُها عَيْـناكِ

فهنا جعلَ الشاعر الطبيعة في هذه الصورة مصدراً له؛ حيثُ استعانَ بـ (**الدنيا**)، وما فيها من ضيق، وعناء أولاً، ثم بـ (**الجنة الخضراء**)، وما فيها من نعيم مقيم ثانياً؛ ليوضح أن عناية الله قائمة، ورعايته للإنسان فائقة في كل أحواله، سواء أكان الإنسان سائراً في جانب النور والهداية، أم في جانب الضلال والغواية.

ب– الطبيعة المتحركة:

اعتمد (كامل أمين) في صقل الصورة الطبيعية المتحركة لملحمته (السموات السبع)، على رافد في غاية الأهمية، وهو (الإنسان)، هذا الرافد يعد سبباً قوياً في إثراء الملكة الشعرية عنده، وازدهار الصورة لديه.

فقد استعان الشاعر بـ (الإنسان)، وجعله مصدراً قوياً للصورة عنده، فجاء بالإنسان شاملاً لـ "هيئة من هيئاته، أو عضوٍ من أعضائه، أو عرضٍ من أعراضه، أو آلة من آلاته، أو أداة من أدواته" (٢)، ومن ذلك: هذا الاستشهاد الرائع، الذي ساقه الشاعر لنا في هذه الصورة الشعرية البديعة، عن قضية الصراع بين الحق والباطل، والتي وقعت بين نبي الله (موسى) –عليه السلام–، وعدو الله (فرعون) الذي ادَّعَى الألوهية، وكان اعتماد (فرعون) في تدعيم مزاعمه الباطلة على السحرة والكهنة، ولكن الله –سبحانه– لم يأذن لهذه المزاعم والأباطيل أن تنتصر

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

(٢) خصائص الأسلوب في الشوقيات، د/ محمد الهادي الطرابلسي، ص: ١٨١، ط: الجامعة التونسية ١٩٨١م.

على الحق، فأوحى إلى نبيه (موسى) بإلقاء عصاه أمام (فرعون) وسحرته؛ لدحض حججهم الباطلة، وفي ذلك يحدثنا (كامل أمين) عن هذه الصورة البديعة، فيقول(١):

ويَجِيءُ دَوْرُ الرُّسْلِ مِمَّنْ أدْرَكُوا النُّـ	ـورَ القديمَ بطيبةِ الأضواءِ
فيَمُرُّ (موسى) داعياً لإلَهِهِ	فيقول فرعون الإله دمائي
أنا من سلالته ومن جبروته	فجميعُ آلهة السَّما آبائي
ويَجِئُ دَوْرُ السِّحرِ والآيات يَوْ	مَ المعجزات أمام عينِ الرائي
تُرْمَى الحِبالُ فتَلْتَوِي وكأنَّها	رُقْطٌ تَهُولُهُم على الغَبْراءِ
حتى إذا ألقى لها (موسى) العصا	غابَتْ بِفَكَّيْ حَيَّةٍ رقْطَاءِ

وهكذا استعان (كامل أمين بـ (الإنسان) في أكثر من صورة، فجعله مصدراً لصورته، التي صورت معاناة الداعي إلى الله أولاً، من خلال الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاده المرير في سبيل تبليغ دعوته إلى الله، ثم استعان بـ (الإنسان) ثانياً، من خلال الأسلحة الواهية التي استخدمها (فرعون)، في الترهيب لمن حوله، وهم السحرة، والكهنة، ثم استعان بـ (الإنسان) للمرة الثالثة، من خلال المعجزة الربانية التي تمثلت في عصا سيدنا (موسى) -عليه السلام-؛ لدحض حججهم الزائفة، وهكذا صَوَّرَ الشاعر (الإنسان) في حالات متعددة، مستعيناً بالطبيعة المتحركة، التي جعلها مصدرا لصورته.

٢- المصادر الثقافية:

كان للجانب الثقافي أثر كبير في تكوين الصورة، وتدعيم قوتها، فحينما يكون الشاعر غزير الاطلاع في شتى العلوم الإنسانية، تكون مصادر الصورة متوفرة لديه، ويتحقق ذلك في

(١) ملحمة السماوات السبع، كامل أمين، ص: ٦٢.

حالة إمعانه النظر في "المعارف الإنسانية، وما لا يدرك حقيقته ذهن الإنسان العامي، إلا إذا سَمَتْ نفسُه إلى عالم القيم الخالدة" (١).

ولقد كان للثقافة على اختلاف ألوانها، ومشاربها، أثرها البالغ في حياة (كامل أمين)، فقد تعددت ما بين ("دينية" نابعة من وحي القرآن، و "أدبية" متعلقة بالأدب العربي، و "تاريخية" متعلقة بقضايا الأمة التي تحدث عنها التاريخ الإسلامي)، ومن هذه الروافد الثقافية للصورة الشعرية في ملحمة (السماوات السبع):

أ- الرافد الديني النابع من وحي القرآن:

اعتمد (كامل أمين) في ملحمته (السماوات السبع) على الجانب الديني؛ بسبب غلبة الوازع الديني عليه في نشأته منذ صغره، ومن ذلك: إشارته إلى أن الدعوة إلى الله، ليست سهلة المنوال، وفي ذلك يضرب لنا أروع الأمثلة من خلال القصص القرآني، كحديثه عن عصيان إبليس لربه، بعدم السجود لآدم، ثم عقاب الله له بخروجه من الجنة، منادياً إياه قائلاً: "قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) " (٢)، وبعد استجابة الله لطَلَبِهِ، بتأجيل حسابه، لم يَشكر لله فضلَه، بل قابل نعمته بالجحود، واعتزم إغواء الناس، فعبر القرآن بقوله: **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)** " (٣)، ثم جاء تصوير الشاعر لذلك بقوله(٤):

وإذا بِصَــوْتِ اللهِ يَهْتــِفُ قَائِـلاً ... أُخْـرُجْ طَرِيــداً. قالَ فَانْظِـرْنِي مَعَهْ

سَأُرِيهِ كَيْفَ يَضِلُّ عَنْ قَبَسِ السَّمَا ... ءِ وَكَيْفَ يَخْبُثُ فِي السَّمَا أنْ تَرْفَعُهْ

(١) خصائص الأسلوب في الشوقيات، د/ محمد الهادي الطرابلسي، ص: ١٨٦، بتصرف.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٤- ٣٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦- ١٧.

(٤) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠.

قـال الإلَــهُ لَــهُ فإنَّــكَ مُنْظَرُه لِلْبَعْثِ. فاحْشِدْ مَا حَشَدْتَ لِتُخْضِعَهْ

وهكذا استعان الشاعر بالمصدر الديني في صورته القرآنية الماتعة، والتي بَيَّن من خلالها أن قدرة الله لا يعجزها شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ب- الرافد الأدبي:

استعان الشاعر بأدواته التصويرية، وملكاته الأدبية؛ لتحقيق ما أراده، فجعل الجانب الأدبي مصدراً لصورته، وخير دليلٍ على ذلك: استشهاده بحياة العرب في الجاهلية، وما فيها من فوضى، وانتشار للظلم بين بعضهم البعض، فكان ذلك وغيره نذيراً باقتراب النور الرباني الذي تمثل في البعثة النبوية، فقال في ذلك(١):

ما زالــتِ الأجيــالُ تَعْبُرُ جِسْرَها والنــاسُ تَظْلِـمُ والدمــاءُ تَسِــيلُ

والقتلُ قَتْلُ النفْسِ لَمْ يُوقَفْ على جَسَــدٍ فَكَــم بالضيــم خَــرَّ قتيلُ

والبعثُ بَعْثُ النَّفْسِ من عثراتها إنَّ الحيـــاةَ مــروءةٌ وجمــيلُ

هذا "محمــدٌ بــنُ عبد الله" يَعْـ ـبُـدُ فــي "حِــراء" ودونه جبريلُ

فالشاعر (كامل أمين) هنا قد استعان في ملحمته (السموات السبع) بالجانب الأدبي الذي غلَّفه بصبغته الإسلامية، لتدعيم صورته، وازدياد قوتها.

ج- الرافد التاريخي:

اهتم الشاعر بالمواقف التاريخية العظيمة اهتماماً بالغا، وجعلها مصدراً لقوة صورته، ومن هذه المواقف الجليلة: انتصار (الأيوبي) على الصليبيين، وسَحْقه لجيوشهم العتيدة بعد عُبُورِه لنهر الأردن، مما كان سبباً في إصابة الصليبيين بالذعر من شدة الضربات، التي كانوا يَئِنُّون، ويصرخون مِن وَقْعِ ألَمِها عليهم، وفي هذا يقول(٢):

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٣.

واجْتَـازَ نَهْــرَ الأرْدُنِ الجَيْشُ العَرَمْ ـرَمُ فِي قُــوَى فُرْسَانِــهِ ومُشَاتِهِ

حتَّـى اسْتَقَـرَّ بِــهِ علَى (طَبَـرِيَّةٍ) وانْقَضَّ وَهْيَ تَئِــنُّ مِن ضرباتِــهِ

حَرَقَ السُّـهُولَ على العـدوِّ وهكــذا أخَـذَتْ عليــه النــارُ كـلَّ جِهَاتِهِ

ومَضَى إلى (حِطِّينَ) يَسْحَقُ كُلَّ مَا اعْ ـتَـرَضَ الطَّرِيــقَ بِعَزْمِـهِ وثَبَاتِــهِ

وهكذا رأينا أن الشاعر استعان في تدعيم صورته الفنية بتاريخ المسلمين المشَرِّف، الذي ارتفعت فيه راية الإسلام والمسلمين، كما استعان قبل ذلك بالجانب الديني، والأدبي، وجعل كل ذلك مصدراً لقوة صورته.

ثانيا: وظائف الصورة:

بالنظر في النتاج الشعري لملحمة (السموات السبع)، نجد أن وظائف الصورة متنوعة لدى الشاعر، ما بين (تشخيصية، وتجسيدية، ودرامية،.. إلخ)، ومن ذلك:

١- الصورة التشخيصية:

لا شك أن التشخيص "وسيلة فنية قديمة، عرفها شعرنا العربي، والشعر العالمي منذ أقدم العصور، وهذه الوسيلة تقوم على أساس تشخيص المعاني المجردة، ومظاهر الطبيعة الجامدة، في صورة كائناتٍ حيَّة تحس، وتتحرك" (١)، وقد وُجِدَ أثر ذلك في نقدنا العربي القديم، ففي معرض حديث (عبد القاهر الجرجاني) عن الاستعارة، نجده يقول: "إنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقا" (٢)، فهي خلق عالم جديد، يُصبح فيه ما ليس إنسان إنساناً يُفكر، ويشعر، ويتعايش مع جميع الكائنات الإنسان، فهي "تمنح الحياة الإنسانية لما ليس بإنسان" (٣).

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ على عشري زايد، ص: ٧٩- ٨٠.

(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: أ/ محمود شاكر، ص: ٤٣، ط: الأولى، جدة المملكة العربية السعودية، دار المدني، ١٩٩١م.

(٣) تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، د. أحمد هيكل، ط ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص ٣٣٣.

وقد كثرت هذه الصور التشخيصية لدى الشاعر، ومن ذلك: استحضاره لحال (آدم)، حينما خلق الله (حواء)، وكأن الشاعر منح الحياة الإنسانية للسماء، والشعاع فيها، فجعل السماء تفتح نوافذها، متهللة، مسرورة، كقصرٍ مضيءٍ يغطيه النور، وجعل شعاع الشمس فيها، يمشي كإنسانٍ عاقلٍ، يفرح بقدوم حبيبه، فيقول(١):

فتحَـــتْ نوافـــذَها السماءُ كأنهـــا قَصْـــرٌ من البَلُّلورِ والأضـــواءِ

ومَشَـــى الشُّـــعاعُ من الكَوَى كجدائلٍ للحُـــورِ أو كجـــداولٍ للمـــاءِ

وبهذا يكون قد جعلَ من (السماء، والشعاع) شخصاً عاقلاً، مُدركاً لقيمة مَن حوله، فينفعل بما يحدث، بل وتصيبه الدهشة من التصرفات المستدعية لذلك.

ثم يصور الشاعر حال (آدم، وحواء)، حينما عصى كلٌ منهما ربه، فرسم لـ (الغيم) شخصية إنسان، يكتنفه الغضب، فيلتحف بالدخان، من هول صاعقة المعصية لربهما، كما شَخَّصَ (الريح) كأنه إنسان، ينتفض من شدة وقع المعصية، فينبعث منه شرر النار في الفضاء؛ كي ينفث عن روحه ونفسه، فيقول (٢):

الغَيْـمُ يلتَحِفُ الدُّخَـانَ صواعِقا والرِّيـحُ تَنَفَّثَ فـي الفضاءِ شرارا

فهنا شخَّصَ الشاعر (الغيم، والريح) في صورة شخص يعقل، يميز بين الخير والشر، فيفرح لجانب الخير، ويُقبل عليه، وينزعج، ويغضب إذا رأى مواطن الشر.

٢- الصورة التجسيدية:

مما قيل عن الصورة التجسيدية: أنها هي التي يتم فيها "تحويل المعنويات من مجالها التجريدي إلى مجالٍ آخر حسي، ثم بث الحياة فيها أحيانا، وجعلها كائناتٍ حية تنبضُ، وتتحرك" (٣)، كما قيل عنها هي: "التي يتمكن الشاعر بواسطتها من التعبير عن المعنويات، في قالب

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٢٥.

(٣) تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، د. أحمد هيكل، ص ٣٣٢.

مادي محسوس؛ بحيث تكون قريبة إلى فهم القارئ" (١)، ومن ثم فهي عملية منح المجرد جسداً؛ لتوظيف المعنى، ومنها قوله (٢):

والدَّهْـرُ يبـدأ فـي طفولة عُمْـرِهِ شَيْخـاً يَمُـدُّ يـداً لِكُـلِّ مكانِ

يصنع البرايا في ضميرِ الغَيْبِ (للتَّـ ـوراةِ) و (الإنجيـلِ) و (القرآنِ)

فهنا نرى الشاعر قد جَسَّد شيئاً معنوياً، وهو (الدهر) في براءته، وطفولة عمره، وانتقال الناس فيه من ظلام الحياة الدامس، إلى نور الهداية الربانية، الذي عمَّ أرجاء الدنيا بمولد التاريخ الإنساني، من خلال شيخٍ يَمُدُّ يده لكل من في الدنيا؛ لكي يعم نور الحق، والسلام، والعفو، والسخاء أرجاء البلاد والعباد.

وكذلك قوله في (صلاح الدين)، الذي جمع الأمة كلها على كلمة سواء(٣):

لَمَّـا رأى أنَّ العروبـة مُزِّقَـتْ في مُلْكِ (نـورِ الديـن) بعد وفاتِـهِ

ففي هذه الصورة تجسيد للعروبة في صورة إنسانٍ، فتك به الاستعمار، فضاعت عزته الشامخة، وهُدِمَتْ كرامته الأبِيَّة.

٣- الصورة الدرامية:

برزت الصورة الدرامية بأهميتها في ملحمة (السموات السبع)؛ لأنها اشتملت على الحركة، والنمو، من خلال "تدافع الأحداث، ونمو المواقف، وتتابع المشاهد في وحدة نامية متآزرة" (٤)، ومن ذلك: قول الشاعر مصوراً موقعة (عين جالوت)(٥):

---

(١) الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي أنواعها مصادرها سماتها، د/عبد الفتاح عثمان، ص: ١٤٨، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٥٦.

(٣) السابق، ص: ٧١.

(٤) الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي أنواعها مصادرها سماتها، د/عبد الفتاح عثمان، ص ١٥١.

(٥) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٦.

لابُـدَّ لِـي يـا (عَيْـنُ جَالُوتٍ) هُنا ... مِـــنْ أنْ أُعِيـــدَ سَنَاكِ للأذهـانِ

وأدُورُ فـي التاريــخِ بالأقـلام دَا ... مِيَـــةَ المَشَاعِـــلِ رَحْبَـــةَ النّيرَانِ

وأُعِيـــدُ غَارَكِ بعدما سَلَبَـتْهُ مِنْ ... ـكِ تَوَافِـــهُ الكُتَّـــابِ فـــي الأزْمَانِ

يا دُرَّةَ الشَّـرْقِ العَظِيمِ ومِنْبَرَ السَّ ... ـيْفِ الـــذي يَزْرِي بِكُـــلِّ بَيَـــانِ

ففي هذه الصورة الدرامية، نرى تآلف معظم عناصرها مع بعضها البعض، كالزمان، والمكان، والأحداث، والحركة، من خلال ذِكْر بعض البطولات على يد (الظاهر بيبرس)، كمعركة (عين جالوت)، وما فيها من مواطن القوة، والإبداع الملحمي، وقد كان الشاعر بارعاً في تمجيد أبطالها، الذين خاضوا غمار حروبها.

كما عرض الشاعر أحداث (عين جالوت) بصورة درامية مغلفة بالروعة والجمال، تملؤها الحركة، والأحداث المتلاحقة من خلال تصويره الجميل قائلاً(١):

واصْطَفَّ جَيْشُ المسلمين وبَعْد أنْ ... سَـدُّوا على الصَّحَـراءِ كـل مكانِ

أخَذَتْ مُشَاةُ الجَيْشِ مَوْقِعَهـا مكا ... نَ القَلْـبِ تحت قِيَـادَةِ السُّلْطَانِ

أمَّا جَنَـاحـاه فقـد كانـا مِـن الْـ ... ـفُـرْسـانِ قَـادَهُمـا بِـهِ بَطَلانِ

عَقَـدُوا لبيبَـرْسٍ لِـوَاءَ يَمِينِـــهِ ... وَلِـوَاءَ أيْسَـــرُهُ إلـى الحَوْرَانِي

وهكذا فقد صوَّرَ لنا الشاعر هذا الموقف الدرامي، مسجلاً لبعض المشاهد العظيمة في هذه المعركة الجليلة، جاعلاً من جهاد (الظاهر بيبرس) أمَله، الذي يرجو تحقيقه في زمانه، فاستغل هذه المناسبات استغلالاً طيباً، من خلال أسلوبه الحماسي البديع، ومن ثم كان بارعاً في تصوير موقف التصدي من (الظاهر بيبرس) لهؤلاء المعتدين، وبَذْل التضحيات في سبيل إنقاذ أرض الحضارات.

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٨.

٤- الصورة الواقعية:

ارتبطت الصورة الواقعية بالواقع المحيط للشاعر، فلم يوجد للخيال فيها أثر كبير، ولم يكن اعتمادها على المجاز في كل أحوالها، وإنما كانت على قدر كبير من الوضوح، مع تزيينها بشيءٍ من الخيال، فهي شعرية غنية بالإيحاء بكل المقاييس مع عدم وجود المجاز اللغوي فيها "وتراثنا الشعري القديم والحديث حافلٌ بكثير من الصور، التي لا تقوم على أي مجاز لغوي، ومع ذلك ففيها من الطاقات الإيحائية، ما ليس في كثير من الصور، التي تقوم على المجاز المتكلف المفتعل" (١)، ومن ذلك قوله(٢):

وإذا ربطنا بين حال الشام بَعْـ ـد الصُّـلْحِ في هذي العُهُودِ وعَهْدِنا

وَضَحَ التَّشَابُهُ بين ساحِلِهِم (وإسـ ـرائيـل) والغـربُ المُقِيمُ بأرضِنا

فالغربُ نَفْسُ الغربِ يحتَلُّ السَّوا حِـلَ مَثْل (رتشاردٍ) لِيَشْطُرَ شعْبَنا

فقد رسم الشاعر من الحياة الواقعية لوحة معبرة عن معاناته النفسية؛ لما يحدث في واقعه المعاصر، حين أبرز لنا صورة الأمة الإسلامية في ضعفها وهوانها؛ بسبب الاستعمار الغاشم، الذي أخذ على عاتقه أن ينخر في عظام المسلمين والعرب، وكأنها الشكاية المرة الأليمة، النابعة من قلب الشاعر المكلوم؛ لما يراه في هذه الدنيا من مرارة الأسى، والغربة، وهذا ما ينبئ عن أن ما يحدث اليوم من الاستهانة بالمسلمين، ما هو إلا تكرار لمسلسل الغطرسة الموجودة في زمن الصليبيين وغيرهم.

ومن هنا يتبين أن الشاعر قد اصطحب الكثير من وظائف الصورة، اصطحاباً أضفى على شعره جمالاً، ورونقا، فتناول بعضاً من الصور التشخيصية، والتجسيدية، والدرامية، والواقعية، وغيرها.

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، على عشري زايد، ص ٩١.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨٠- ٨١.

ثالثا : أنواع الصورة:

تعددت أنواع الصورة لدى (كامل أمين)، وكان لهذا التعدد أبلغ الأثر في جودتها، وإخراجها في زينتها؛ لما لها من توضيح دلالي، وتأثير قوي في نفوس القراء، فتنوعت بين: (الجزئية، والكلية) تارة، وبين ما يؤخذ عليها من (الخطابية، والمباشرة، والنمطية) تارة أخرى، وسوف يتناول الباحث بعضاً من تلك الخصائص.

١- الصورة الجزئية:

هي التي تصور مشهداً محدوداً، معتمدة في الأعم الأغلب على الألوان البيانية المعروفة، من (تشبيه، واستعارة، وكناية.. إلخ)، إذا تطلبها المقام، واستدعاها السياق، وقد تكون خالية من الأساليب البيانية السابقة، باعتمادها على الحقيقة وحدها، وهي ليست بالقليلة عند الشاعر، وقد جاءت عناصر تشكيل الصورة الجزئية في ملحمة (السموات السبع) على النحو التالي:

أ- التشبيه:

اعتمد (كامل أمين) في رسم بعض صوره على عنصر (التشبيه)؛ بقصد التوضيح، والإبانة عما في نفسه من جهة، والتأثير الإبداعي في عرض أسلوبه للمتلقي من جهة أخرى؛ لأنه "من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة، والبراعة عندهم، وهو بحرُ البلاغة، وسِرُّها" (١)، ومن ذلك قوله(٢):

غَفَلَ الفُؤَادُ وحِينَ فتَّحَ عَيْنَهُ ... لَقِيَ الهَوَى فِي زَفَّةٍ مِن حُورِ

وصَبُوحَةٍ فِي الوَرْدِ يَنفُخُ عِطْرَهَا ... فِي كُلِّ جَارِحَةٍ بِلَمْحَةِ نُورِ

كالْخَمْرِ إلا أنَّهَا جَسَدٌ مِن اللَّـ ... ـحْمِ الشَّهِيِّ لِشَهْوَةِ المَخْمُورِ

كالدُّمْيَةِ المَصْقُولةِ القَسَمَاتِ إلّ ... لَا أنَّهَا مِن فتنةٍ وشعُورِ

(١) القرآن والصورة البيانية، د/ عبد القادر حسين، ص: ٧، ط: الثانية، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٨٥ م.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٢.

فهي صورة تشبيهية، بديعة، متأنقة، مليئة بالصور الجزئية، والدلالات المعبرة، فقد شبه الشاعر حال (آدم)، حينما أحَسَّ بوجود (حواء)، من خلال عطرها النَّفَّاذ، الذي يستخلص من الورد، الذي يكسو كل جارحةٍ فيها، بـ (الخمر) النابع من جسدها تارة، وبـ (الدُّمية المصقولة القسمات) في جمالها، الذي ترشف منه مناهل السعادة والنعيم، معتمداً في ذلك على الصور الحسية، فجاء أحدها: متمثلاً في جمالها، وطلَّتها، وشذى عطرها النابع من الورد في صباحه، وجاء الآخر: متمثلاً في الخمر الذي يُسْكِر صاحبه... إلى غير ذلك، ولا شك في أن هذه الصورة التشبيهية، كان لها أبلغ الأثر في الإيحاء للقارئ، بوجود الحيلة لدى إبليس، في أن يُقَوِّض عرش سعادتهما، حينما سمع أنهما مُنِعا من تذوق ثمار شجرة معينة في الجنة، فاستغل مكره وحيله، وراح يوسوس لهما يوماً بعد يوم، وقد نجحت حيلته في إغوائهما، وبذلك تكون هذه الصورة التشبيهية معتمدة في رسم ملامحها على حِسِّية الطرفين.

ب- الاستعارة:

أسهمت (الاستعارة) بشكلٍ واضحٍ في تكوين الصور الفنية عند (كامل أمين)، وتشكيل ملامحها، ومنها: قوله(١):

هـَذِي الرِّسالةُ من (صلاح الدين) ما زالَـتْ تَمُـدُّ لنـا الشُّـعاعَ الهَادِيـَا

(بجمال عبد الناصـر) انْطَلَقَـتْ فعَا دَ بِـــهِ (صــلاح الديـن) فِينـَا ثانِيَا

ففي إطار مدح الشاعر للمناضل/ صلاح الدين الأيوبي، جاءت هذه الصورة الجزئية، التي استعار فيها (شعاع الهدى)، حينما شخَّصَ فيها التاريخ الجميل الأبِيّ في صورة الزعيم/ جمال عبد الناصر، الذي سار على خطى (صلاح الدين الأيوبي)، وكأن الشاعر جعل من رسالة (صلاح الدين)، شخصاً متمثلاً في (جمال عبد الناصر)، الذي انتهج منهج (الأيوبي) حفظاً، وذكرا، فجاء بـ (عبد الناصر) دليلاً على النور النابع من سَيْرِهِ على خطى (الأيوبي) في طريقه، الذي يُنَوِّر للحيارَى والتائهين طريقهم، فهي صورة موفقة رائعة لـ (الاستعارة المكنية)، التي شبَّه

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٨١.

فيها نضال الزعيم (عبد الناصر)، في وقوفه ضد المعتدين، بشعاع الهدى، الذي اكتسبه من السير على منهاج (الأيوبي)، ولعلنا نُلاحظ تعبير الشاعر عن الاتباع بالشعاع الهادي، فالشعاع مع الهدى يوجد حيثما وجد الزعيمان (صلاح الدين، وعبد الناصر)، وكذا الحال حينما تذكر الأصالة، والزعامة، وتشرق شمس العدالة، حينئذٍ يكون الإنصاف من التاريخ لمن يستحق، فيُعْطَى كلُّ ذي حقٍ حقه.

ج – الكناية:

كان لها دورها الواضح في إثراء الصورة الفنية لدى (كامل أمين)، ومن ذلك: ما تحدث عنه الشاعر في اكتساحِ (صلاح الدين) لقلاع أعدائه، ودَكِّ حصونِهم، وخوفِهِمْ مِن قوته التي تبطش بهم، وتجَرُّعِهم لمرارة القتل، والتعذيب، فيقول(١):

ومضَى صلاح الديــن يكتسح الطَّرِيـ ـقَ إلى الشمـال بِقُـوَّةِ الرِّئْبَـالِ

(صُهْيُـونُ) كانت في حِمَى فُرْسانِ (يُو حَنَّـا) على جبــلٍ مَنِيـعٍ عالي

شَمَخَــتْ وراءَ خنـادِقٍ وثــلاث أسْـ ـوَارٍ تُحِيـطُ جبــالها بجِبـــالِ

فهذه كلها صور كنائية، تنبئ عن حالة الخوف، والهوان، التي تأصلت في بني صهيون، وأصبحت تشكل جزءًا من شخصيتهم، ونتج عن هذه الصفات الذميمة لديهم آنذاك (صفة الجبن)، وكذلك ما أصاب هؤلاء الصليبيين من صفات (المذلة، وضعف الهمة)؛ بسبب قسوة القائد المغوار/ صلاح الدين الأيوبي عليهم، وقد عبر عن ذلك بقوله: (**شمخت وراء خنادقٍ وثلاث أسوار تحيط جبالها بجبال**).

(١)ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٥.

٢– الصورة الكُلّية:

يؤثر الشاعر التعبير بتلك الصور التي تتشكل من جزئيات متناغمة، بحيث تتآزر، وتمتزج في بوتقة واحدة مع بعضها البعض، فتشكل بنياناً متماسكاً لهيكل واحد، ولوحة واحدة، تعرف بـ (الصورة الكلية).

هذه الصورة الكلية "تتكون من صور جزئية مترابطة، ترسم مشهدا عامًّا، وتشكيلها ينبئ عن طاقة إدراكية كبيرة، تنفذ إلى الجزئيات، والتفاصيل، وتؤلف بينها في صورة واحدة"(١)، وقد تناول الباحث بعضاً منها كقصة خلق (آدم)(٢):

وإذا بِنُــورِ اللهِ يَسْـطَعُ آخِــذاً ... أبْصَــارَهُمْ فكَأنَّهُـمْ لا يَنْظُـــرُونْ

وإذا المَـلائِـكُ مِنْ جَـلالِ اللهِ خَا ... شِــعَةٌ وجُوهُهُــم فظلُّــوا مُطْرَقِيـنْ

وإذا بِصَــوْتِ اللهِ يَهْتِــفُ قَائِـلاً ... يَا أيُّهَــا الْمَلِكُ. افعَـلُوا مَا تُؤْمَرُونْ

إنّـي خَلَقْـتُ الطِيـنَ إنسـاناً وأعْ ... ـلَمُ مِنْ ضَمِيـرِ الغَيْبِ مَا لا تَعْلَمُونْ

فإذا نَفَخْــتُ الآن مِـن رَوْحـي به ... وتحرَّكَـتْ فَقَعُـوا لآدَمَ سَاجِــدِيــنْ

وتَفَتَّحَـتْ أجْفَــانُ آدَمَ فالتَقَـــتْ ... بِالنُّــورِ. فانْكَسَـرَتْ لِرَبِّ العَالَمِيــنْ

ورأى الملائـك راكعيــن أمامــهُ ... إلا كيـانـاً ليـس بيــن الراكِعِيــنْ

ناداه صَــوْتُ اللهِ. يـا إبليسُ لِمْ ... تَعْصِـي. فلـم تركـع له كالطَّائِعِيـنْ

لقد التفت الشاعر إلى جانب من جوانب الإعجاز الإلهي في خلق (آدم) –عليه السلام–، وقد صاغَ هذه الصورة الكليَّة، من خلال تلاحم صورها الجزئية التي اكتنَفَتْها، بأسلوبٍ مُعَبِّرٍ عما أراده.

---

(١) قراءة الشعر وبناء الدلالة، د/ شفيع السيد، ص: ٢٧٨، ط: الثانية، دار غريب، ٢٠٠١م.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٩– ١٠.

ففي الصورة الجزئية الأولى: تحدث عن كيفية اختصاص الله لـ (آدم) بأفضال كريمة، خلصت له دون غيره، فقد خلقه الله، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

وفي الصورة الثانية: تأتي الأبيات متحدثة عن هذا النور، الذي خلقه الله بقدرته، وعلَّمه الأشياء التي لم يُعَلِّمْها لغيره.

وفي الصورة الثالثة: جاءت الأبيات مشيرةً إلى سجود الملائكة لـ (آدم)، وإقبالهم عليه مُعَظِّمين له، واعتراض إبليس عن السجود له؛ مُعَلِّلاً ذلك بأنه "خيرٌ من آدم عنصراً، وأزكى منه جوهراً" (١).

وفي الصورة الأخيرة: أوضح فيها الشاعر عتاب الحق –سبحانه– لإبليس، على معصيته، مما كان سبباً في خروجه من الجنة مذموماً مخذولا.

وهكذا شكلت تلك الصور الجزئية صورة كلية، تمثلت في قضية خلق (آدم) –عليه السلام–، وأن الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وقد عبَّرَ الشاعر بهذه الصور الجزئية، عن هذا الحوار الدائر بين الحق سبحانه، وملائكته من جهة، وبين الحق سبحانه، وإبليس من جهة أخرى؛ ليبين أن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما.

ومن هنا يتضح أن عناصر الصورة الفنية في ملحمة (السموات السبع)، اتسمت بروعة أخيلتها، وجمال صورها، وقيامها بأداء وظيفتها دون تكلف، بل إنها جمعت مع أداء الوظيفة بإتقان، روعة الفن، وجماليات الأسلوب، وهذا يدل على توقد قريحة الخيال عنده، بجانب اعتماده على معالجة الواقع بصدق وأمانة، وفي ضوء ما سبق يمكن تلخيص القول عن الصورة الفنية عند (كامل أمين) فيما يلي:

١– تنوعت مصادر الصورة الفنية في ملحمة (السموات السبع) بين مصادر عدة، مقَسَّمة بين (الدين، والأدب، والطبيعة)، كما اشتملت على بعض الوظائف كـ (التشخيصية،

(١) قصص القرآن، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى– محمد أبو الفضل إبراهيم– علي محمد البجاوي– السيد شحاته، ص: ٣، ط: الثالثة عشر، مكتبة دار التراث ١٤٠٥هـ– ١٩٨٤ م.

والتجسيدية...إلخ)، وكذلك بعض الأنواع كـ (الجزئية، والكلية)، ومن ثم جاء هذا التنوع في المصادر، والوظائف، والأنواع، بالإضافة إلى موهبة الشاعر؛ سبباً في إضفاء مزيد من الثراء، والجمال على صوره.

٢- امتازت الصور بالنفور من المبالغات، والتعقيدات، واتسمت بالتلقائية، والوضوح، كما نَأتْ بنفسها عن الغموض، وإن لم يكن كل الغموض معيبا.

٤- اتسمت صوره كذلك بوجود علاقة طبيعية بين طرفي الصورة، هذه العلاقة قائمة على الانسجام، والتآلف في المعنى مع بعضها البعض.

٥- جاءت بعض الصور التاريخية لدى الشاعر في بعض الأحيان، طريفة، مبتكرة، وفى أحيان أخرى وردت تقليدية؛ نتيجة لاعتماده الواضح على التراث، وكثرة مطالعاته فيه، واقتباساته منه.

٦- تكررت بعض مفردات الصور، وعناصرها بوجه خاص، ويرجع ذلك إلى عدة أمور، منها: رغبته في ترسيخ دلالة الصورة، وإبراز المعنى الذى تحمله، وتقوية مضمونها، وتوكيده، وهذا يعد من أبرز الدعائم القوية للصورة الفنية عند الشاعر.

٧- جاءت بعض الصور الفنية في بعض الأحيان رديئة من الناحية الفنية، وهذا راجع- في رأي الباحث- إلى: اكتفائه أحياناً في صوره بالقيام بدور المصور، الذى ينقل الصورة كما تفعل الكاميرا، دون أن يلتفت إلى تصوير إحساسه، ونقله إلى الآخرين، ومن الاستشهادات الواردة في ذلك قوله(١):

وإذا (بِأُسْطَى) قال في أُذن الأمِيـ ـرِ نخافُ مِنْ (عِثْمان) حين يَثُورُ

انظُرْ إليه تَجِدْهُ يُفَتِّلُ شَعْرَ شَا رِبَهُ (وزُقْلته) هناك تُشِيرُ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٠١.

مما يجعل الباحث يلقي الضوء على بعض المآخذ، التي اكتنفت صورته في بعض الأحيان، ومنها:

- **الخطابية:**

فمما يؤخذ على الصورة عند (كامل أمين)، ويُقَلِّل من قيمتها الفنية: عدم إثارة الانفعال النفسي، الناتج من انعدام الإيحاء النغمي، والاعتماد في بعض الأحيان على الأسلوب الخطابي، ومن ذلك قوله (١):

وإذ بـإبْلِيسٍ يَـــرَى حُـورِيَّـــةً تَصْغَـى إلَيْـهِ وتَسْتَحِي أنْ تَنْظُـرَا

كـانَ الجَمَالُ يُنِيرُ مِنْ فَرْطِ الصِّبَا إنْسَـانَ عَيْنَيْـهِ وَيَسْلبُـهُ الْكَـــرَى

قالَتْ لَهُ: مَنْ يَا تُـرَى هَذا الْجَدِيـ ـدُ؟ ومَن يَكُونُ؟ ومَنْ سَيُصْبحُ يَا تُرَى؟

فهنا في الأبيات السابقة، نرى الشاعر قد جنح إلى الإفراط في النزعة الخطابية، التي تفقد النص الشعري جزءًا كبيراً من الإيحاء، والدلالة، والإثارة، التي تتولد مع استكشاف آفاق جديدة لأبعاد هذا الحدث.

- **المباشرة:**

من المآخذ التي أخذت على الشاعر (المباشرة)، وقد عَدَّ النقاد للصورة المباشرة ظاهرتين: "الأولى: أن الصورة حرفية، فوتوغرافية، تُسجل السطح الظاهر للعلاقات بين الموضوعات، وتركز على بُعْدٍ واحد، أو بُعدين، والثانية: أنها صورة قريبة المتناول، لا تغوص في أعماق الأشياء، فهي لذلك صورة عادية، مألوفة، وقد أكسبتها هاتان الظاهرتان شيئاً من الجفافِ، والنثرية" (٢)، وهذا ما نجده أحيانًا في مثل قوله(٣):

---

(١) السابق، ص: ٨.

(٢) تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، د/ نعيم اليافي، ص: ١٥٨، ط: صفحات للدراسة والنشر، سوريا، دمشق ٢٠٠٨ م، بتصرف يسير.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٣.

فإذا (بعيسَى) يَبْعَثُ المَوْتَى بإذْ ... نِ الله حتَّى يُؤْمِنوا ويتوبوا

ويسيرُ فوق الماءِ وَهْوَ أمامهم ... لُجٌ تكاد بها السفينُ تَغِيبُ

ويَمُدُّ راحَتَهُ فيُبْرِئُ أكمَهاً ... أو أبرصاً وطريقُهُ مرهوبُ

فقد اعتمد (كامل أمين) على الدخول المباشر، في تصوير الحدث الذي يريد معالجته؛ حين أراد أن يبين للمشككين المعجزات الربانية، التي أجراها الله على يد نبيه (عيسى)، مبتعداً عن الخيال الشعري، الذي يثير المشاعر عند المتلقي.

- **النمطية:**

كان لـ (النمطية) دورٌ معيبٌ في رسم الصورة الفنية لملحمة (السموات السبع)، وقد أوضح النقاد حقيقتها بقولهم هي: "التي نضبت إيحاءاتها بكثرة الاستعمال" (١)، فهي تُؤخذ على الشاعر إذا ما ركن إليها، ومن ذلك قوله(٢):

ما زالتِ الأجْيَالُ تَعْبُرُ جِسْرَها ... والنَّاسُ تَظْلِمُ والدِّمَاءُ تَسِيلُ

والقتلُ قَتْلُ النفْسِ لمْ يُوقَفْ على ... جَسَدٍ فكَمْ بالضَّيْم خَرَّ قتِيلُ

والبَعْثُ بَعْثُ النَّفْسِ مِن عثراتها ... إنَّ الحَيَاةَ مُرُوءَةٌ وجمِيلُ

هذا "مُحَمَّدٌ بنُ عبد الله" يَعْ ... بُدُ في "حِرَاء" ودونه جبريلُ

فهنا صور الشاعر المعنى المراد بشكل نمطي واضح، بعيد عن تزاحم الصور في ذهن المتلقي، فصور حالة المجتمع البشري في شبه الجزيرة العربية، الذي عاش على سفك الدماء، وانتهاك الأعراض، وشرب الخمور، قبل بعثة نبينا—صلى الله عليه وسلم–، ومن المعلوم أن المبنى في حقيقته لا وزن له بدون المعنى، فبالشكل يكتسب النص الشعري فَنِّيَتَه وأدبيته، وبالمضمون

(١) واقع القصيدة العربية، د/ محمد فتوح أحمد، ص: ٦٩، ط: الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٦.

يكتسب النص الشعري عظمته وقيمته.

فهذه بعض الخصائص الفنية للصورة الفنية عند (كامل أمين) في ملحمته (السموات السبع)، تلك التي تراوحت بين ما يُحمد له، وما يؤخذ عليه، وهذا ما يوضح في النهاية حديث الباحث عن الصورة الفنية في ملحمة (السموات السبع) للشاعر/كامل أمين.

المبحث الرابع
الموسيقى الشعرية

تُعد الموسيقى عنصراً من العناصر المميزة، التي انفرد بها الشعر عن غيره من فنون الأدب، فلا يُنازع الشعر في موسيقاه بنوعيها (الخارجية، والداخلية) منازع من فنون النثر، وإن كانت (الموسيقى الداخلية) تتخلل بعض الفنون النثرية، إلا أنها –أي الموسيقى الداخلية– تبقى ذات سحرٍ خاصٍ في الشعر، فهي الزاخرة بالنغمات المتعددة، ذات الأحاسيس المختلفة، وذلك من خلال تفاعلها مع (الموسيقى الخارجية)، المتمثلة في (الأوزان، والقوافي)، والتي لها أبلغ الأثر، في عدم انقطاع علاقتها بين منشد القصيدة ومُتَلَقِّيها، وهذا ما سوف يتناوله الباحث في الجانب الموسيقي لملحمة (السموات السبع)، التي نظمها صاحبها بكاملها على تفعيلات (بحر الكامل التام).

أولاً: الموسيقى الخارجية:

يتناول الباحث (الموسيقى الخارجية) بنوعيها، مُبيّنا البحر الشعري الذي نظمَ عليه؛ إذ إن الشعر منذ وُجِد، وُجِدَتْ معه أوزانه، كما وجدت معه قوافيه، ومن ثم لابد من اجتماعهما مع بعضهما البعض، فهما صنوان لا يفترقان، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، وفي الصفحات التالية بيان كل منهما بشيءٍ من التفصيل.

١– الأوزان:

مما لا شك فيه، أن الوزن هو الذي يمنح اللفظ الشعري إيحاءًا شعورياً، وجرساً نغمياً، لا يتأتى لغيره من الفنون الأخرى؛ حيث إن تتابُع الإيقاع المنظم من الشاعر، صاحب الذوق السليم، يجعله يأتي بقوافيه مناسبة لعواطفه، فهو "ركن الشعر المهم، بل هو أعظم أركان حَدِّ الشعر، وأولاها به خصوصية" (١).

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ج: الأول، ص: ١٣٤.

والناظر الفاحص في ملحمة (السموات السبع)، يجد أن الشاعر لم يخرج في نظمه لملحمته عن الأوزان التقليدية المعروفة، وهي أوزان (بحر الكامل التام)، فجعل لكل مجموعتين أبياتاً، تختلف حروف رَوِيّها عن المجموعة الأخرى، وقد يتكرر حرف (الرَّوِيّ) في بعض المجموعات، وبذلك يختلف (كامل أمين) عن بعض الشعراء الآخرين، من أمثال: الشاعر/ أحمد محرم صاحب (الإلياذة الإسلامية)؛ حيث إن (أحمد محرم) لم يلتزم بحراً واحداً، وإنما عدَّدَ البحور، والقوافي معاً، بخلاف (كامل أمين) هنا في ملحمته (السموات السبع)، فقد التزم فيها بحراً واحداً وهو (الكامل)، ولكنه لم يلتزم توحيد القافية.

وقد أبحر شاعرنا (كامل أمين) في هذا البحر المفرد (الكامل) إبحاراً كبيراً، فجاء نظمه عليه لملحمته في (ألفين وثمانمائة بيت)، بنسبة تتجاوز (٩٨٪) من عدد أبياتها كلها؛ وذلك نظراً لطول النَّفَس فيه، وكمال حركاته، فالتام منه سداسي التفاعيل، ثلاث تفعيلات في كل شطر (متفاعلن متفاعلن متفاعلن...متفاعلن متفاعلن متفاعلن).

وقد جاء نظم الشاعر/ كامل أمين لملحمته، معتمداً على صورة الكامل التام (صحيحة العروض بضربيها: الصحيح، والمقطوع) على هذا النحو:

فجاء المبحث الأول المعنون بـ (النور القديم) على وزن (الكامل التام) في صورته الأولى (صحيحة العروض، صحيح الضرب) في (تسعمائة وتسعة وسبعين بيتا)، وذلك كقوله [١]:

كانَتْ قَدِيماً خَلْفَ أسْوَارِ السَّمَا مِنْ قَبْلِ أنْ يَحْيَا التُّرَاب ويَعْلَما

وكذلك المبحث الثالث، الذي عنونه بـ (الحروب الصليبية)، جاءت عروضه (صحيحة)، وضربه (صحيح) في (مائة واثنين وثمانين بيتا)، كقوله [٢]:

هـذا صلاحُ الدِّيـنِ أقْبَـلَ يَـوْمُـهُ بمشاعـلِ التَّـاريـخِ مِنْ فَلَواتِـهِ

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

(٢) السابق، ص: ٧١.

وأما المبحث الثاني المعنون بـ (معبر الأجيال)، فجاءت عروضه (صحيحة)، وضربه (مقطوع) في (مائتين وسبعة وستين بيتا)، كقوله (١):

بـدأت حياةُ الأرض باسم الله إنِّ ـي أستعيـذ بــه من الشيـطانِ

وكذلك المبحث الرابع الذي عنونه بـ (حرب التتار)، فكانت عروضه (صحيحة)، وضربه (مقطوع) في (ألف وثلاثمائة وتسعة واثنين وسبعين بيتاً)، كقوله (٢):

واصْطَفَّ جَيْشُ المسلمين وبَعْد أنْ سَـدُّوا على الصَّحَـراءِ كـل مكانِ

ومن ذلك يتبين أن ما جاء من أبيات في نتاجه الشعري، الذي بلغ (ألفين وثمانمائة بيت) في ملحمته (السموات السبع)، جاء (صحيح العروض، صحيح الضرب) في (ألف ومائة وستين بيتًا) تقريباً، وجاء (صحيح العروض، مقطوع الضرب) في (ألف وستمائة وتسع وثلاثين بيتاً) تقريباً، وقد أجاد الشاعر في نظمه على وزن (بحر الكامل)؛ لأن امتداد البحر، وطول النفس فيه، قد أتاحا له أن يعبر عن فكرته تعبيراً مستوفياً واضحاً لما يريده، بدون إيجازٍ مُخِل، أو استطرادٍ مُمِل؛ حيث إن الغرض من إنشاء القصيدة، يقتضي التعبير الدقيق عن المعنى، وقد أعد الباحث هذا الجدول التالي؛ لبيان البحر الذي نظم عليه الشاعر ملحمته، وعدد الأبيات فيها، ونسبتها المئوية:

البحر	عدد الأبيات	صحيحةالعروض، صحيح الضرب	النسبة المأوية	صحيحةالعروض مقطوع الضرب	النسبة المأوية
الكامل	٢٨٠٠	١١٦١	٤١،٥٪	١٦٣٩	٥٨،٥٪

وهكذا بعد استعراض الباحث للبحر الذي نظم عليه (كامل أمين) ملحمته (السموات السبع)، يمكن القول بأن الشاعر:

(١) السابق، ص: ٥٦.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١٤٨.

– اعتمد في نظمه لملحمته اعتماداً كاملاً على بحر مفرد وهو (الكامل التام)، دون (المجزوء، والمشطور، والمنهوك).

– نوَّعَ في صوره للكامل التام، بين العروض (الصحيحة) بضربيها (الصحيح، والمقطوع)، ولم يكتف بواحدة في أيٍّ منها.

– طال نفسه في هذا البحر المفرد؛ حيث إن عدد أبياته للعروض (الصحيحة)، وضربها (الصحيح)، قد تجاوزت (ألفاً ومائة وستين) بيتًا، بينما طال نفسه أكثر من ذلك، في عدد أبياته للعروض الصحيحة، وضربها المقطوع؛ حيث أرْبَتْ على (ألفٍ وستمائةٍ وأربعين) بيتاً.

٢– القوافي:

مما لا شك فيه أن (القافية) تعد قسيمة (الوزن) في اكتمال العمل الشعري، فهي تضفي على العمل الشعري قيمة موسيقية خاصة؛ بسبب تكرار الأصوات، والحروف في أواخر أبيات القصيدة، كما أن "لكلمات القافية صلة بموسيقى البيت، والقافية في الشعر العربي ذاتُ سلطانٍ، يفوق على نظائرها في اللغات الأخرى" (١)، فهي "الصوت الذي ينتهي إليه تدافع النغم داخل كل بيت، أو جملة موسيقية" (٢)، ومن هذا المنطلق، يتناول الباحث قوافي (كامل أمين)، من حيث رَّوِيِّها، وإطلاقها، وتقييدها.

– **أما من حيث الرَّوِي:**

فقد اصطحب (كامل أمين) –بصفة تقريبية– معظم أحرف لغة الضاد، في بناء (الرَّوِي) لملحمته (السموات السبع)، وإن اختلفت الصحبة من حرف لآخر، ومن ذلك –على سبيل المثال لا الحصر–: قوله على (رَوِيّ الراء)(٣):

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص: ٤٤٢، ط: دار الثقافة، ودار العودة، لبنان ١٩٧٣ م.

(٢) الأدب في العصر المملوكي الشعر والشعراء، د/ محمد زغلول سلَّام، ص: ١١٠، ط: منشأة المعارف، ج: الثالث، الإسكندرية، بدون.

(٣) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٩.

ومَضَى يُحَدِّثُ نفْسَهُ وأقامَ لِلّ ... ـهِ العبادةَ وهْوَ مُضْطَرِبُ الشُّعُورِ

وكذلك قوله على (رَوِيّ الميم)(١):

كانَتْ قديماً خَلْفَ أسْوَارِ السَّمَا ... مِنْ قبْلِ أنْ يَحْيَا التُّراب ويَعْلَما

وكذلك قوله على (رَوِيّ الكاف)(٢):

وهُنَا رأَتْ حَوَّاءُ ثَوْرَةَ (آدَمٍ) ... فَتَدَخَّلَتْ بسلاحِها الفَتَّاكِ

وهذا ما تم تناوله من الباحث، وإجماله-بصورة تقريبية-، من خلال الجدول التالي، مُبيّنا أحرف رويّه، وعدد الأبيات التي جاءت على أحرفه، بنسبتها المئوية:

الروي	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١- الراء	٣٣١	٪١١،٨
٢- الميم	٢٥٣	٪٩
٣- اللام	٣١١	٪١١،١
٤- الدال	١٣٦	٪٤،٩
٥- الباء	٧٧	٪٢،٨
٦- السين	٢٥	٪٠،٩
٧- النون	٤٣٩	٪١٥،٧
٨- التاء	١١٠	٪٣،٩
٩- العين	٤٣	٪١،٥
١٠- القاف	٢٤	٪٠،٩
١١- الهمز	٤٣	٪١،٥

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

(٢) السابق، ص: ٢١.

١٢- الياء	٢٨	٪١
١٣- الكاف	٨٩	٪٣،٢
١٤- الحاء	٥٩	٪٢،١
١٥- الهاء	٣٨٧	٪١٣،٥

وهكذا تعرَّفنا على حروف (الرَّوِيّ) في ملحمة (السموات السبع)، واتضح لنا أنه لم يدع معظم الحروف اللغوية، إلا وصاغ عليها معظم شعره، ونظم عليها قافيته، كحروف (الراء، والنون، والميم، واللام...إلخ)؛ وذلك لأن القافية والرَّوِيّ، لهما علاقة كبيرة بالمعنى، والغرض، والحالة النفسية عند الشاعر، فحين يصور الشاعر حدثاً معيناً، فإنه يأتي بأوزانٍ وقوافٍ مناسبة لحالته الشعورية، وما يجول في قلبه.

- **وأما من حيث إطلاق القافية، وتقييدها:**

فالملاحظ في ملحمة (السموات السبع)، اعتمادُ الشاعر على القافيتين (المطلقة، والمقيدة)، إلا أن غالب اعتماده كان على (القافية المطلقة)، فجاءت النسبة المئوية لقوافيه المطلقة تتجاوز (٩٥٪) تقريباً، وجاءت النسبة المئوية لقوافيه المقيدة لا تتجاوز (٥٪) بل أقل، -وهذه نِسَبٌ تقريبية-، وهذا نتاجٌ طبيعيٌ للحالة الشعورية الحزينة، التي أخذ الشاعر يُفَرِّغُ من خلالها شُحْناتَه العاطفية الملتاعة، على هذه القوافي المطلقة ذات النَّفَس الواسع، فاستراح الشاعر إلى إطلاق القافية؛ لِمَا فيها من التنفيس عن لواعج الصدور المحْتَرِقة، والنفوس التي تشعر بالحسرة، فهي تجري على نحو من السلاسة، والسهولة، والعذوبة، ومن نماذج القوافي المطلقة: قوله (١):

الله قَـدَّرَ كلَّ شيْءٍ ليْسَ لِلْ ... إنْسَـانِ أنْ يَخْتَـارَ أيَّ جَدِيـدِ

فإذا أكَلْتَ فإنَّ ذلك كـان مَقْ ... ـدُوراً أجَلْ مِنْ قبْلِ. قَبْلِ وُجُودِي

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٢٢.

ومن نماذج القافية المقيدة قوله (١):

سـارَ التَّتـارُ إليهِـمْ وتَجَمَّـعَتْ معَهُـمْ علـى (بغـدادِ) أهْلُ المُوصِلْ

نزلـوا على (بغدادَ) في الوقتِ الذي بـدأ الخليفـةُ فيـهِ حَشْـدَ الجَحْفَلْ

وهكذا جاءت القافية في ملحمة (السموات السبع)، دقيقة في موضعها، غير متكلفةٍ إلا في القليل منها، ومن ثم انسجمت مع مضمون الأبيات، وهذا مما يُحسَب للشاعر، فيُثبت شاعريته، وفهمه لأوزان الشعر العربي، وقوافيه، وقد اتضح مدى حرص الشاعر على اختيار قوافيه، ذات الجرس الموسيقي الواضح، والذي يُسْهِم بدورٍ بارزٍ في توصيل أفكاره، النابعة من فطرةٍ أصيلةٍ للقراء والمتلقين.

ثانياً: الموسيقى الداخلية:

لعل من سمات الشاعرية العظيمة: أن يتمتع الشاعر بإحساسه الصادق، وقدرته على الملاءمة بين الصوت والمعنى؛ حيث إن الصوت يؤدي دوراً مهماً في الإبداع الموسيقي، وتحقيق الإيقاع الجمالي، وإيصال المعنى المراد إلى القراء.

وقد تميَّزَ نتاج الشاعر في ملحمته (السموات السبع)، بتنوع موسيقاه الداخلية، فبمُجرَّد التأمل فيه، يأخذنا بين عدة ظواهر موسيقية، وصوتية، تتشكل منها الموسيقى الداخلية، ما بين (تدويرٍ، واطِّرادٍ، وتصريعٍ.. إلخ)، ولكُلِّ لَونٍ منها جماله الأخاذ، ورونقه الساحر للألباب، ومن تلك الظواهر:

١- الاطِّرَاد:

اشتملت (الموسيقى الداخلية) هنا على لون بلاغي معنوي؛ لتوضيح الجانب النغمي، وهو ما يعرف بـ (الاطراد)، ومعناه: "أن يذكر الشاعر اسم الممدوح؛ ليزداد إبانة وتوضيحاً على نسق مستقيم، من غير تَكلُّفٍ في النظم، ولا تعَسُّفٍ في السَّبك، حتى يكون ذكر الاسم في

(١) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ١١٨.

سهولته، كاطراد الماء، وسهولة جريه" (١)، ومن استشهادات الشاعر في ذلك: ضربه المثل بالمعجزات الربانية، التي أجراها الله على يد سيدنا (عيسى)، حينما تصدى للباطل وأعوانه، فقال(٢):

فإذا (بعِيسَى) يَبْعَثُ الْمَوْتَى بإذ ... نِ الله حتَّى يُؤْمِنُوا ويَتُوبُوا

ويَسِيرُ فَوْقَ المَاءِ وهْوَ أمَامَهُمْ ... لُجَجٌ تكادُ بِهَا السَّفِينُ تَغِيبُ

وكذلك قوله في إبطال حجج من يُؤَلِّهُ سيدنا (عيسى) -عليه السلام-(٣):

إنْ قِيلَ (عِيسَى) بْن الإلَهِ أو الإلَـ ... ـهُ فقَدْ تأخَّرَ عَقْلُكُمْ أجْيَالا

واسْتَنْكَرَ العَقْلُ الإلهَ الآدَمِ ... يَّ فكَيْفَ يَقْبَلُ نَسْلَه أطفالا

فقد جاء (الاطراد) مُوضحاً تلك المواقف في تدفقٍ، جعله داخلاً في نسج الأبيات دون تَكلُّف، فصارَ جزءًا لا يمكن الاستغناء عنه؛ لِمَا له من دورٍ مهمٍ في إيضاح ما أراده الشاعر، ومن ثم يستطيع الباحث أن يقول: إنَّ الموسيقى الداخلية هنا مُطَّرِدة؛ بسبب استيفائها لمعانيها، وسَوْق الشاعر لهذا اللون الموسيقي (الاطراد) في سلاسة، وتواؤم بين المعنى والوزن.

٢- التدوير:

من الظواهر الموسيقية التي كثرت في ملحمة (السموات السبع) ظاهرة (التدوير)، ولهذا (التدوير) علاقة بانفعال الشاعر؛ لأن قوة العاطفة تدفعه لاجتياز الشطر الأول، فلا يتوقف إلا

(١) فن البديع، د. عبد القادر حسين، ص ١٠٠، بتصرف يسير.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٦٣.

(٣) السابق، ص: ٦٣ – ٦٤.

في نهاية الشطر الثاني، والبيت المدَوَّر هو: "الذي اشترك شطراه في كلمة واحدة، بأن يكون بعضها في الشطر الأول، وبعضها في الشطر الثاني" (١)، ومن ذلك قوله(٢):

ومضى صلاحُ الدينِ يَحْصُدُهُمْ كَأَوْ ... رَاقِ الخَـرِيفِ بِرِيحِـهِ الهَوْجَاءِ

ما بيـن كَـرّ كتيبـةٍ تَعْـدُو وبَيْـ ... ـنَ كَتِيبـةٍ فـي غـارةٍ شَعْـوَاءِ

وتفـتَّحَـتْ أبْـوابُـــهُ للمسلمِيـ ... ـنَ وَسُلِّمَـتْ فـي ليـلةِ الإسـراءِ

فقد منح (التدوير) لهذين البيتين جرساً موسيقياً متصلاً لا يتوقف، مما أكسب الشاعر قدراً من حرية الإبداع، الناشئ من الانفعال النفسي لدى الشاعر، وما يدور بخلده من مشاعر، وعواطف، وأحاسيس.

٣- الترصيع:

لا شك أن (الترصيع) صنعة يتحكم فيها الفكر أكثر مما تتحكم فيها البديهة، وتتمثل في "أن يضيف الشاعر إلى القافية التي تبنى عليها القصيدة قافية أخرى داخلية، تكون في حشو البيت" (٣)، وقد ظهرَ ذلك في نتاجِ الشاعر، حيث يقول(٤):

ورأيْتُ نفسِي حيـث كنْـتُ أراكَ في ... نفســي فكيـف أقـولُ أنّـي لا أراكَ؟

فجاءَ الترصيع في هذا البيت، متمثلاً في كلمة (أراك) التي وقعت في الشطر الأول والثاني، فـ (أراك) الأولى في حشو الشطر الأول من البيت، و (أراك) الثانية في قافية البيت، مما كان له أثره الفعال في علُوِّ الجرس الموسيقي، والإيقاع النغمي.

(١) قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، ط ٣، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٦٧م،ص: ٩١.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧٤.

(٣) موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ص: ٤٧، ط: السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ م.

(٤) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

٤- تشابه الأطراف:

يعتبر (تشابه الأطراف) مظهراً مهماً للموسيقى الداخلية الظاهرة، وهو: "أن يُعيد الشاعر لفظة القافية، في أول البيت الذي يليها، فتكون الأطراف متشابهة" (١)، ومما وردَ منه لدى الشاعر قوله (٢):

فتَنَفَّسَتْ كتَنَفُّسِ العبد الذي ... آنَ الأوانُ لكيْ يُحَطِّمَ كُلَّ نَيْرْ

نَيْرُ العبادةِ نَيْرُ حُبِّ الخَيْرِ نَيْ ... رُ هِتافِ صَوْتِ اللَّهِ في وَخْزِ الضَّمِيرْ

فقد ظهر (تشابه الأطراف) في إعادة هذه الكلمة (نَيْرْ)، التي هي ضرب البيت الأول، في صدر البيت الثاني، وفي هذا دلالة على مدى طواعية مفردات اللغة للشاعر في التعبير بها، مما يعطي للأبيات نغماً موسيقياً متدفقا.

٥- التصريع:

يعد (التصريع) نمطاً موسيقياً، يضرب بجذوره في أعماق الشعر العربي، وبرغم اقتصاره على بيتٍ واحدٍ في القصيدة، إلا أنه "يعتبر واحداً من عناصر موسيقية، ذات جرسٍ صوتيٍ واضحٍ، تدركه الآذان" (٣)، وهو: "ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته" (٤)، وقد دخلَ الكثير من (التصريع) في معظم مقاطع ملحمة (السموات السبع)، ومن ذلك: قول الشاعر(٥):

كانَتْ قَدِيماً خَلْفَ أسْوَارِ السَّمَا ... مِنْ قَبْلِ أنْ يَحْيَا التُّرَاب ويَعْلَما

---

(١) فن البديع، د/ عبد القادر حسين، ص: ٥٥.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٩.

(٣) الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، د/ طلعت أبو العزم، ص: ٤٠٧، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ج: الأول، ص: ١٧٣.

(٥) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٧.

فهنا نرى في هذا الشاهد أن (التصريع) دخل في مطلع هذا البيت، الذي تم نظمه على وزن (بحر الكامل التام)، والذي جاءت عروضه صحيحة كضربها الصحيح، ولعلنا نلحظ ما يتركه (التصريع) من الأثر الفعال، الناشئ من الإيقاع الموسيقي الداخلي الممتد في البيت الشعري.

٦- حُسْن المطلع:

اعتمد الشاعر في نظمه لملحمته (السموات السبع) على لون آخر من ألوان الموسيقى الداخلية، وهو (حُسن المطلع) الذي يتمثل في: "أن يجتهد الشاعر بأن يجعل قصيده رائقاً مطبوعاً، لا كُلْفة فيه، وأن يبدأ كلامه بما يُتفاءل به، لا بما يُتطير منه، حتى تميلَ إليه الأُذن، وتنشط لإدراكه" (١)، ومن ذلك: قوله(٢):

الله. باســـم الله جـــلَّ جـــلاُلُـــهُ نُـــورٌ علـــى نـــورٍ أَرُودُ سَمائِي

باسْمِ السَّماءِ نَشَرَتْ قِصَّتَها وباسْـ ـمِ اللهِ سِـــرْتُ بهـــا علـــى الغَبْـرَاءِ

فقد بدأ الشاعر حديثه في افتتاحية ملحمته (السموات السبع) بذكر (الله) أولاً، ثُمَّ بذكر صفةٍ من صفاته وهي (النور)، فوصفه بأنه نورٌ على نورٍ عمَّ سماءه، كما أورد قسَمَه بالسماء مصحوباً باستئناسه باسم الله، الذي ينير له طريقه، وهو يسير على الغبراء، وكأنه يذكر (الله) متوكلاً عليه؛ إرضاءً له، فأحسنَ الترتيب بذكرِ (الله)، ثمَّ بصفة من صفاته، ثُمَّ بالقسم بـ (السماء) التي تُشِع النور باسم (الله)، وهذا المطلع مما يُثلِجُ الصدورَ، وتميل إليه المشاعر، وتطربُ له الآذان، والأسماع.

وبعد إمعان النظر في بعض ألوان الموسيقى الداخلية لملحمة (السموات السبع)، يتبين أنها تنحصر في خصائص عامة، منها:

- تَمَيُّز الشاعر بوضوح الجرس الموسيقي، من خلال استعانته بالعديد من الألوان البديعية.

(١) فن البديع، د. عبد القادر حسين، ص ١٠٨.

(٢) ملحمة السموات السبع، كامل أمين، ص: ٣.

- تَمَيُّز البديع بالبعد عن التكلف إلا في القليل منه؛ مما يعطي لهذا الجانب الموسيقي قيمةً عالية.
- حِرْصُ الشاعر على الالتزام بعمود الشعر العربي، فيبدأ بـ (التصريع)؛ لما له من تأثير قوي في نفوس القراء والمستمعين.
- حين يستخدم الشاعر أدواته الشعرية، إنما يهدف إلى أحد أمرين: إما (جَذْب القراء، والمتلقين إلى ما يقول)، وإما (التأثير في عقل، ووجدان المتلقي)، وهذان الأمران لا يتحققان إلا بوضوح الجانب النغمي، وعُلُو إيقاع الكلمات، ووضوحها.

ومن هنا يتبين أن الموسيقى بنوعيها (الخارجية، والداخلية) في شعر ملحمة (السموات السبع)، جاءت مستجيبة للحالات الانفعالية المختلفة، في ساعات الهدوء حيناً، وفي حالات الثورة حيناً آخر، وكذلك التفاؤل، والرضا حيناً، والحزن، والكدر حيناً آخر، فضلاً عن أثرها الفعَّال في النفس، ومدى ملاءمة الكلمات ذات الجرس الموسيقي للمعنى، مما يجعل المتلقي، أو القارئ في نشوةٍ، ومتعةٍ حسية؛ حيث تنجذب الأذن إلى هذا النغم الموسيقي، بجانب المتعة العقلية والنفسية.

الخاتمة

بعد هذه الجولات الأدبية في محيط هذا البحث، المعنون بـ (ملحمة السموات السبع لكامل أمين "دراسة في المحتوى والفن")، تبين أن الشاعر/ كامل أمين، قد نظم ملحمته برؤية تأملية، مؤثرة في النفوس؛ لمعالجة الأحداث المعاصرة، ومن خلال تأمله في تلك الأحداث، انتهى الباحث إلى ما يلي:

- أن ملحمة (السموات السبع)،تعد من أهم المصادر الأساسية، التي تؤرخ للمبادئ الدينية، والركائز العقدية، ومعارك العصور الإسلامية.
- امتلك (كامل أمين) من الأدوات الفنية، ما جعله يصور أحداث ملحمته بصدقٍ، وواقعية؛ وذلك راجع إلى حُسْنِ تصويره، وبُعْدِه عن المبالغة، وتزييف الحقائق.
- أشار (كامل أمين) إلى الوسيلة التي من خلالها، تسترد الأمة عزتها، وكرامتها، وهي تحقيق الوحدة المنشودة بين سائر الأقطار الإسلامية.
- يرجع تناوله لأسماء بعض القادة الإسلاميين، لأحد أمرين: إما لدلالة قوية في توجيه مجتمعه إلى التغيير، وإما لإبراز التناقض الحاد، بين جلال الماضي وجماله، وتراجع الحاضر وتأخُّرِه.
- اتَّسَمَ شعره بسمات فنية مميزة، تناولت اللغة القوية، والأسلوب الرصين، فبرع في انتقائهما، وكان معجمه الشعري قوياً مؤثراً إلى جانب سهولته ووضوحه.
- تميزت المعاني والأفكار بوضوحهما، وقرب مأخذهما، فلا تعقيد فيها، ولا التواء.
- جاءت صوره الشعرية طبيعية غير متكلفة، ولا مستكرهة، فَدَلَّتْ على أنه رسَّام ماهر، ووصَّاف بارع، يصور بشعره ما يجيش به صدره، وما يعتمل بفكره.
- لم يخرج الشاعر في التشكيل الموسيقي لملحمته عن بحر (الكامل التام)؛ لتلاؤمه مع مشاعره، وحالاته النفسية، إلى جانب أنه لم يتجاهل ما للألفاظ من موسيقى خفية؛ بسبب ترابطها، وانسجامها، ورنينها الممتع، وإيقاعها الجميل.

المصادر

- القرآن الكريم.
- الحديث النبوي الشريف.
- ملحمة السموات السبع، الشاعر/كامل أمين، ط: الشبكشي بالأزهر، القاهرة ١٣٧٨ هـ.

المراجع

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، د/ عبد القادر القط، ط: دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٧م.
- الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص: ٤١٣- ٤١٤، ط: الأولى، دار الجيل، بيروت.
- الأدب القصصي عند العرب، د/ موسى سليمان، ط: الرابعة، دار الكتاب اللبناني- بيروت.
- الأدب المقارن (أصوله وتطوره ومناهجه)، د/ الطاهر أحمد مكي، ط: الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٧هـ.
- الأدب المقارن، د/ محمد غنيمي هلال، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٨م.
- الأدب في العصر المملوكي الشعر والشعراء، د/ محمد زغلول سلَّام، ط: منشأة المعارف، ج: الثالث، الإسكندرية، بدون.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: أ. محمود شاكر، ط: الأولى، دار المدني، جدة المملكة العربية السعودية ١٩٩١م.
- أسس النقد الأدبي عند العرب، د/ أحمد بدوي، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٦ م.

- الإسلام في شعر شوقي، د/ أحمد الحوفي، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٢ م.
- الأسلوب، أحمد الشايب، ط: الثامنة، مكتبة النهضة المصرية.
- أصول النقد، د/ أحمد الشايب، ط: مكتبة النهضة العربية ١٩٦٤ م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج: الثاني، ط: دار إحياء التراث العربي.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، أخرجه: محمد سعيد العريان، ج: الثالث، ط: الأولى، الاستقامة، القاهرة ١٣٥٩ هـ- ١٩٤٠ م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، ج: الأول، ط: مؤسسة هنداوي للنشر ٢٠١٣ م.
- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د/ شوقي ضيف، ط: الثامنة، دار المعارف.
- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ط: دار الثقافة، بيروت- لبنان.
- تاريخ العرب، د/ فيليب حتى- د/ إدوارد جورجي- د/ جبرائيل جبور، ط: التاسعة، الناشر: دار غندور- بيروت، توزيع: دار إحياء العلوم- بيروت ١٩٩٤ م.
- تحفة الزمن بترتيب تراجم أعلام الأدب والفن، أدهم الجندي، المجلد الرابع، ط: الأولى، الناشر: دار المقتبس ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
- تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، محمد مفتاح، ط: الثانية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦م.
- تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية، د. أحمد هيكل، ط: الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.
- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، د/ نعيم اليافي، ط: صفحات للدراسة والنشر، سوريا، دمشق ٢٠٠٨م.

- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، عباس محمود العقاد، ط: دار القلم- دمشق.
- حافظ وشوقي، حسن كامل الصيرفي- مصطفى عبد اللطيف السحرتي، ط: المقتطف والمقطم، مصر ١٩٤٩ م.
- الحروب الصليبية الأولى، د/ حسن حبشي، ط: الثانية، دار الفكر العربي، مصر ١٩٥٨ م.
- خصائص الأسلوب في الشوقيات، د/ محمد الهادي الطرابلسي، ط: الجامعة التونسية ١٩٨١م.
- دفاع عن الفولكلور، د/ عبد الحميد يونس، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ م.
- ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، ج: الأول، ط: الإستقامة، القاهرة ١٩٥٣ م.
- ذيل الأعلام للزركلي، أحمد العلاونة، المجلد الثالث، ط: الأولى، دار المنارة للنشر والتوزيع١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبوشامة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ج: الثالث، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢ هـ.
- الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربي الحديث، د/ طلعت أبو العزم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.
- سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة، تأليف: جورج غريب، ط: دار الثقافة- بيروت ١٩٧٢ م.
- السنن الكبرى، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج: التاسع، ط: الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- شعر الحرب في أدب العرب، د/ زكي المحاسني، ط: دار المعارف، مصر ١٩٦١ م..

- الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه (ابن كلثوم- ابن حلزة- ابن شداد)، جورج غريب، ط: سلسلة الموسوعة في الأدب العربي، نشر وتوزيع دار الثقافة — بيروت.
- صحيح مسلم (كتاب الجنائز- باب البكاء على الميت)، الإمام/ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج: الثاني، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، بدون.
- الصناعتين (الكتابة والشعر) لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن مهران العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
- الصورة الأدبية تاريخ ونقد، د/ علي علي صبح، ط: الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.
- الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي أنواعها مصادرها سماتها، د. عبد الفتاح عثمان، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- الظواهر الفنية في الشعر الوجداني لدى شعراء أبوللو، د/ طلعت عبد العزيز أبو العزم، ط: الأولى، شركة طنطا للمهمات المكتبية ١٩٨٨م.
- العماد الأصفهاني حياته وعصره، د/ حسين عاصي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، ج: الأول، ط: دار الجيل ١٤٠١هـ- ١٩٨١ م..
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، على عشري زايد، ط: الرابعة، ابن سينا للطباعة والنشر، القاهرة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢ م.
- عناصر الإبداع الفني في شعر ابن خفاجي، د/ يحي خاطر، ط: الأولى، مؤسسة الإخلاص للطباعة والنشر، بنها- القليوبية ١٩٩٩م.

- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، علي عبد الحليم محمود، ط: الأولى، دار التوزيع والنشر الإسلامية- مصر ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣ م.
- فن البديع، د. عبد القادر حسين، ط: الأولى، دار الشروق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣ م.
- فن الملاحم (الأصول، النشأة، التطور- أوديسة هوميروس)، محفوظ كحوال، ط: دار توميديا للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٩م.
- قراءة الشعر وبناء الدلالة، د. شفيع السيد، ط: الثانية، دار غريب، ٢٠٠١ م.
- القرآن والصورة البيانية، د/ عبد القادر حسين، ط: الثانية، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٨٥م.
- قصة الأدب في العالم، زكي نجيب محمود- أحمد أمين، ج: الأول، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- قصص القرآن، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى- محمد أبو الفضل إبراهيم- علي محمد البجاوي- السيد شحاته، ط: الثالثة عشر، مكتبة دار التراث ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤ م.
- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة، ط، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٦٧م،ص: ٩١.
- كشف الغمة في مدح سيد الأمة، محمود سامي البارودي، ط: الجريدة ١٣٢٧ هـ.
- لسان العرب، الإمام: محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير- محمد أحمد حسب الله- هاشم محمد الشاذلي، ج: الخامس، ط: دار المعارف المصرية، القاهرة.
- المطولات الإسلامية في شعر مرسي شاكر الطنطاوي (دراسة تحليلية فنية)، د/ هشام محمد البيه، ط: الأولى، الشروق ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- معجم المصطلحات الأدبية، إعداد: إبراهيم فتحي، ط: التعاضدية العالمية للطبع والنشر، صفاقس، تونس ١٩٨٦م.

- مقدمة ابن خلدون، تأليف: العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (٧٣٢- ٨٠٨ هـ)، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله محمد الدرويش، ج: الأول، ط: الأولى، دار يعرب، دمشق ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤ م.
- الملحمة في الشعر العربي، د/ سعد الدين الجيزاوي، ط: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧ م.
- المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، ج: الثاني، ط: المكتبة الأزهرية للتراث.
- موسوعة تاريخ مصر، أحمد حسين، ج: الثاني، ط: دار الشعب، القاهرة.
- موسيقى الشعر بين الاتباع والابتداع، د/ شعبان صلاح، ط: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- موسيقى الشعر، د/ إبراهيم أنيس، ط: السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ م.
- النثر الفني في القرن الرابع، د/ زكي مبارك، تقديم: عثمان غزال، ج: الأول، ط: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ١٩٧١ م.
- النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ط: دار الثقافة، لبنان ١٩٧٣ م.
- واقع القصيدة العربية، د. محمد فتوح أحمد، ط: الأولى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م.
- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، د/ محمد ماهر حمادة، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩م.

المحتويات

التمهيد..... ٩٠٠
(الملحمة الشعرية: مفهومها- تطورها)..... ٩٠٠
الفصل الأول..... ٩١١
الدراسة الموضوعية لملحمة (السموات السبع)..... ٩١١
المبحث الأول ٩١٢
النـــور القديـــم ٩١٢
المبحث الثاني ٩١٨
معبر الأجيال من اللاوجود البشري إلى الوجود ٩١٨
المبحث الثالث ٩٢٦
موقف صلاح الدين الأيوبي من الحروب الصليبية ٩٢٦
المبحث الرابع ٩٣٤
شجاعة الظاهر بيبرس في محاربة التتار ٩٣٤
الفصل الثاني ٩٤٠
من محاور الإبداع الأدبي في الدراسة الفنية..... ٩٤٠
المبحث الأول ٩٤١
المعاني والأفكـــار ٩٤١
المبحث الثاني ٩٤٨
المعجم الشعري (اللغة، وبناء والأسلوب)..... ٩٤٨

المبحث الثالث ٩٦١
الصـورة الفنيـة..... ٩٦١
المبحث الرابع ٩٨١
الموسيقى الشعرية ٩٨١
الخاتمة ٩٩٣
المصادر..... ٩٩٤
المراجع ٩٩٤